الـوَعْـد

صَفَحَاتٌ مِنْ دَفْترِ السِّنين

دكتور/ سمير عبّاس

obeikandl.com

اسم الكتاب: الوعد... صفحات من دفتر السِّنين

المـــــؤلف: دكتور/ سمير عباس

الناشـــــر: بورصة الكتب للنشر والتوزيع

٢٥ شارع شريف- القاهرة

Email: adel.metwaly69@yahoo.com
borsatelkotob@gmail.com

٠١٠٠١٨٨٩٣٦٣ - ٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩

رقم الإيداع: ٢٠١٥/٢١١٢٤

الترقيم الدولي: ٢- ٠١١-٧٩٧-٩٧٧-٩٧٨

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية- دار الكتب المصرية

عباس، سمير.

الوعد صفحات من دفتر السنين: سمير عباس.- القاهرة: بورصة الكتب للنشر والتوزيع، ٢٠١٥ .

١٠٠ص؛ ٢٠سم.

تدمك: ٢-٠١١-٧٩٧-٩٧٧-٩٧٨

١- المقالات العربية.

أ- العنوان.

obeikandl.com

الـوَعْـد

صَفَحَاتٌ مِنْ دَفْترِ السِّنين

دكتور/ سمير عبَّاس

الطَّبعة الأوْلى ٢٠١٦

obeikandl.com

obeikandl.com

إهداء

إلى الرَّاحل أحمد عاطف عبَّاس . . .

عشتَ بكبرياء الرّجال . . . ورحلتَ شامخًا . . .

دون أن تنحني أو تنكسر . . .

دعاؤنا لكَ بالرَّحمة . . .

أيها الحبيب . . . الغائب . . . الحاضِر .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدِّمة	٩
١- وداعًا للموت	١٣
٢- نعم متشائم... ولكن	١٦
٣- عن الموت... وغربة الإنسان	١٩
٤- قلوبنا لا تعرف الحبَّ	٢١
٥- الحريَّة والثَّمن	٢٣
٦- الفقر... لماذا يحاصرنا؟	٢٥
٧- هل نودِّع قريبًا هذا الزِّحام على الأرض؟	٢٧
٨- العلماء... ضحايا عبقرياتهم	٢٩
٩- شبابنا في المهجر... سؤالٌ حائر	٣١
١٠- العدْل	٣٣
١١- التَّاريخ... صفحات	٣٥
١٢- قليلٌ من الفرح... قليلٌ من الحزن	٣٧
١٣- الأجيال ولعبة الزَّمَن	٣٩
١٤- الليل	٤١
١٥- عملاق... لم يعد يعرف النّوم	٤٣
١٦- أشرار... أم حكماء	٤٥
١٧- السِّياسة... والثَّمن	٤٧
١٨- الحبّ... وصديقي العاشق	٤٩
١٩- المفكِّر حين يتقاعد	٥١
٢٠- هل ننعم بالسَّلام على الأرض	٥٣

obeikandl.com

الموضوع	الصفحة
٢١- نهر الدّموع	٥٥
٢٢- إنَّهم يقتلون الفضيلة	٥٨
٢٣- عن المرأة... وعالمها	٦٠
٢٤- الكون... وما لا نعرفه	٦٣
٢٥- الرِّجال والتَّاريخ	٦٥
٢٦- عن الخيول... وأحزانها	٦٧
٢٧- ثمن الولاء... وثمن الشَّجاعة	٦٩
٢٨- لماذا ينتحر الإنسان...؟؟؟	٧٤
٢٩- عن السُّقوط وتوابعه... بين التَّشفِّي والمرارة	٧٦
٣٠- الثّور والرَّايات الحمر... تأمُّلات في المأزق الأمريكي	٨١
٣١- هكذا تحدَّث جورج...	٨٧
٣٢- اللصوص والأقنعة	٩٣
٣٣- عن العراق والمقاومة... تساؤلات مشروعة	٩٨

obeikandl.com

مقدِّمة

حيرني طويلًا البحث عن عنوان لهذا الكتاب، فأنا لا أميل إلى العناوين النمطيَّة التي تشي بالمحتوى من مجرَّد تصفحها سريعًا على أحد الأرفف في مكتبة أو معرض للكتب. وأعتقد أنَّ عنوان الكتاب ينبئ عن شخصيَّة مؤلّفه، كما أنَّه كلما كان العنوان غامضًا من حيث مدى تعبيره المباشر عن المحتوى، كلما كان أكثر جاذبيَّة للقارئ الذي يمرّ بعينيه سريعًا على عناوين ما هو معروض أمامه لتلتقط أنامله فقط ما يثير فضوله.

لذا وبعد مراجعات استغرقت ليالي طويلة كان عنوان "الوعد... صفحات من دفتر السِّنين" هو أكثر العناوين – من وجهة نظرنا – تعبيرًا عن محتوى كتاب ليس نمطيًّا بالمعنى المعروف، ولكنَّه بمثابة وجبة متنوِّعة من الموضوعات والأفكار والتَّأمُّلات... منها ما يحمل الشَّجن، ومنها ما يقطر أحزانًا، ومنها ما يبعث على الأمل في الغد الآتي، ومنها ما يصف حالة أو حدثًا مستقى من موقف أو تجربة.

هو إذًا ليس كتابًا بالمعنى المعروف للكتاب ذي الموضوع الواحد أو القضيَّة الواحدة، ولكنَّه تجميعٌ لعددٍ من مقالاتٍ قصيرة كان المؤلِّف قد اعتاد نشرها أسبوعيًّا في الصَّفحة الثقافيَّة بجريدة العالم العربي حين كان يعمل بها رئيس تحرير على مدى أربع سنوات ما بين عام ٢٠٠٠م وعام ٢٠٠٤م. وهي الجريدة الأكبر والأوسع انتشارًا في العديد من الولايات الأمريكيَّة، رغم كونها تصدر في كاليفورنيا بعيدًا عن واشنطن باللغتين العربيَّة والانجليزيَّة.

كانت هذه المقالات تنشر أسبوعيًّا في صورة عمود بتوقيع الحرفين الأوَّلين من اسم المؤلف "س. ع."، وتحت عنوان ثابت هو "هذه الدُّنيا"، وذلك على اعتبار أنَّها في معظمها بمثابة تأمُّلات في تصاريف الكون، والإنسان، والمصير، والحياة والموت. ولعلَّ اختيار هذا العنوان يشي بطبيعة الموضوعات التي كان يتمّ تناولها في عمود أسبوعي في صفحة الثَّقافة.

لا يفوتنا في هذه المقدِّمة الإشارة إلى أنَّ موضوعات الكتاب أضيفَ إليها بعض التَّحديث – أي مقالات حديثة - بحكم أنَّها تنشر في صورة كتاب بعد مرور أكثر من عشر سنوات على نشرها الأوَّل في الجريدة.

أتمنَّى أن تكون الصَّفحات التَّالية أكثر من مجرَّد توثيق لفترة من حياة الكاتب بقدر ما يجد فيها القارئ شيئًا يجذب اهتمامه، أو يطرح على عقلهِ سؤالًا، أو يوقظ في وجدانه ذكرى لحظة سعادة عاشَ تفاصيلها، أو يذكِّره بأنَّه ليسَ وحدهَ مَن يحمل الهمومَ في هذا الكون.

كلمة أخيرة لاستكمال هذه المقدِّمة، وهي ضرورة التَّنويه بأنَّ الجزء الأخير من الكتاب يتضمَّن عددًا من المقالات الطَّويلة نسبيًّا وذات الطَّابع السِّياسي، كانت أيضًا قد نُشِرَت في الجريدة نفسها، وخلال الفترة ما بين عامي ٢٠٠١ – ٢٠٠٣ وهي الفترة التي شهدتْ أسوأ لحظات عاشتها الأمَّة الأمريكيَّة في تاريخها المعاصر، حيث أحداث سبتمبر الشَّهيرة، ثمَّ ما ترتَّب عليها من مصائب كان أخطرها وأشدّها قسوة علينا كعرب، العدوان الأمريكي البريطاني الكوني على العراق.

نشرت هذه الموضوعات كمقالات افتتاحيَّة لأعداد مختلفة من الجريدة بقلم رئيس التَّحرير. أمَّا دلالة إعادة نشرها بين دفتي هذا الكتاب، فهي في

الواقع أمر يرتبط بحقيقتين ارتبطتا بالحرب الأمريكيَّة الكونيَّة على العراق عام ٢٠٠٣م.

الحقيقة الأوْلى هي توثيق واقع أنَّ الإعلام العربي الأمريكي الشَّريف، والمواطنين والمثقَّفين العرب الشّرفاء على الأرض الأمريكيَّة إبَّان تلك الأزمة لم يتخاذلوا عن نصرة قضايا أمَّتهم، في أحلك وأصعب الظروف، لم يصمتوا أو يتواروا خوفًا أو طمعًا، وإنَّما مارسوا النِّضال السِّلْمِي، والرَّفض العلني الصَّاخب من خلال التَّظاهرات والكتابة الصَّحفيَّة باللغتين العربيَّة والانجليزيَّة، كما كان حال جريدة العالم العربي على مدى الفترة منذ هجمات سبتمبر عام ٢٠٠١م وما نَجَمَ عنها من حملة مسعورة للجمهوريين ضدّ العرب والمسلمين وضدّ الدّول العربيَّة والإسلاميَّة. كلّ هذا دون دعم أو مساندة أو استتباع فكري أو مادِّي من أيَّة جهة أو حكومة عربيَّة أو غير عربيَّة.

أمَّا الحقيقة الثَّانية فهي الإشارة إلى مدى احترام الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة لحريَّة الفكر والتَّعبير كقيمة إنسانيَّة، وكحقٍّ لصيق بالمواطن الأمريكي لا يحقّ لأحد أن يحاسبه أو يعاقبه على ممارسته.

فعلى مدى شهور الأزمة التي امتدَّت لتصير سنوات، لم تحاول أيَّة جهة سياسيَّة كانت أو أمنيَّة، الاعتداء على حقِّنا في حريَّة التَّعبير أو معاقبتنا بسبب ممارساتنا إزاء الرَّئيس جورج بوش الابن، وإزاء الحزب الجمهوري الحاكم وقتها، وذلك رغم اعترافنا بقسوة الظّروف التي كانت تمرّ بها أمريكا – الشَّعب والحكومة – في تلك اللحظات.

ولعلَّ احترام الإدارة الأمريكيَّة لمواطنيها كان هو الحافز الذي دعا أصدقائي من قادة الجالية العربيَّة في كاليفورنيا لينصحوني بالتَّقدُّم للحصول

على الجنسيَّة في ذلك الوقت، طالما أنا مستحقّ لها منذ سنوات، وكان منطقهم هو أنَّ كتاباتي ستجلب لي متاعب قد تذهب بي إلى معتقل جوانتانامو سيئ الصّيت، وساعتها لا يستطيع أحد الدّفاع عني لأني لست أمريكيًّا. وهنا كان تهافت وضعف منطقي الشَّخصي المتمثِّل في الإصرار على عدم حمل أيَّة جنسيَّة بخلاف جنسيّتي المصريَّة.

اقتنعتُ وقتها بأنَّ التَّقدُّم للحصول على الجنسيَّة الأمريكيَّة، بالإضافة إلى أنَّه حقّ دستوري لا علاقة له بالسِّياسة أو الانتماء الوطني، فهو أيضًا يمنحني الحقَّ في الدِّفاع دون خوف عن قضايا أمَّتي ووطني التي هي قضايا عادلة رغم التَّشويه السِّياسي والعقائدي الرَّهيب الذي يمارسه الإعلام الأمريكي على مدار السَّاعة على عقول الأمريكيين.

تنويه أخير في هذه المقدِّمة... نرَى أنَّه ضروري إلى مدى بعيد، ألا وهو الإشارة إلى أنَّ الفضلَ في إنجاز هذا العمل في هذه المرحلة، يعود إلى وجود المؤلِّف في مدينة الرِّياض الهادئة، رغم طوفان الحداثة والتَّحديث.

فالحياة في هذه المدينة الشَّابَّة في قلب صحراء نجد بالمملكة العربيَّة السّعوديَّة على مدى السَّنوات الخمس الماضية أتاحت للمؤلِّف الكثيرَ من الوقت، والظّروف؛ لكي ينفضَ الغبار عن كتابات ومشروعات فكريَّة وأدبيَّة وبحثيَّة كانت قد توارت طويلًا على الأرفف وفي الأدراج في زحمة الحياة على مدى سنوات العمر التي مضت...

لذا نرى ضرورة كلمة شكر وامتنان لمدينة الرِّياض التي منحتنا فرصة العودة... إلى... هذه الصَّفحات... من دفتر السِّنين.

الرِّياض

المملكة العربيَّة السّعوديَّة

ديسمبر ٢٠١٥
sameconomist@yahoo.com

وداعًا للموت

لا يكفُّ العلماء عن البحث والعمل في صمتٍ من أجل الوصول إلى سرِّ الموت، والإجابة عن الأسئلة الكثيرة المحيّرة التي يفجِّرها هذا الضّيف الثَّقيل باعتباره الحالة الوحيدة تقريبًا التي يقف الإنسان أمامها عاجزًا، مستسلمًا، مستعينًا بقناعاته الدِّينيَّة، علَّها تخفِّف عنه وجيعة الفراق لمن أحبَّ.

العلماء لا يأبهون كثيرًا بالجزء الثَّاني من الرِّحلة المتمثِّل في الحساب والخلود والجنَّة، لذا لا يتوقَّفون عن إعمال العقل في أسرار الإنسان، خاصة مكوِّنه الأساسي وهو الخلية، التي من ملايينها المتجانسة يتكوَّن كيان الإنسان الفرد وحياته وحيويَّته أو مواته.

في هذا السِّياق فاجأنا عالم الأحياء البريطاني أوبري دي جراي بخبر مبهر سيغيّر مصير البشريَّة ونمط الحياة على كوكب الأرض. أعلنَ دي جراي البالغ من العمر واحدًا وخمسين عامًا أنَّ التَّقدُّم في العمر ليس سوى مَرَضٍ يمكن علاجه. وأنَّه مع هذا العلاج فلن يكون هناك ما يمنع الإنسان من أن يعيشَ خمسمائة أو ألف أو حتَّى خمسة آلاف سنة.

هذا العالم وُلِدَ في مدينة شيلسي البريطانيَّة، وعندما تُوفِّيت والدته عام ٢٠١١م تركت له ثروة قدِّرت بمبلغ ستَّة عشر مليون دولار. أنفق منها على أبحاثه العلمية حتَّى نشر هذا الخبر مبلغ ثلاثة عشر مليونًا، وقبل أن تنفد البقيَّة الباقية من أمواله الخاصَّة، كانت كبريات الشَّركات في وادي السِّليكون

في كاليفورنيا قد سمعت عنه وعن أبحاثه غير المسبوقة، والنَّتائج التي توصل إليها، فتبرَّعوا له بعشرات الملايين ليستمرَّ في عمله البحثي.

يقول دي جراي إنَّ نظريَّته تقوم على الإقرار بأن تلف الخلايا هو الذي يسبِّب الشَّيخوخة والمرض، وبالتَّالي الموت. لذا فإنَّ التّقنيَّات التي يجري تطويرها حاليًا في مؤسَّسته البحثيَّة سوف تسمح بإصلاح واستبدال أجزاء الجسم المتضرِّرة على مستوى الخلايا، وهو الأمر الذي يعطي الجسدَ البشريَّ عمرًا أطول.

يذكر الباحث دي جراي أيضًا أنَّ الشَّيخوخة مَرَض يمكن علاجه، ويضيف متحدِّثًا إلى جريدة الدّيلي ميل البريطانيَّة: إنَّ أوَّل شخص سيعيش لعمر ألف عام قد ولد بالفعل؛ لأنَّ جميع الدِّراسات التي أجريت على الفئران والدِّيدان والحشرات تثبت صحَّة نظريَّته، وأنَّ العلاجات التي سوف تعدّل الخلايا وراثيًّا، أو تستبدلها أو تصلحها، سوف تكون المفتاح للحياة الأبديَّة.

في السِّياق نفسه ولكن على الجانب الآخر، يخرج علينا عالم الفيزياء البريطاني أيضًا ستيفن هوكنج (٧٣ عامًا) الأستاذ في جامعة كمبريدج، محذِّرًا من أنَّ البشريَّة لن يمكنها العيش ألف سنة أخرى، إلَّا إذا استطاعت الهروب من هذا الكوكب المزدحم عبرالاستمرار في استكشاف الفضاء بهدف فتح آفاق جديدة لهجرة الإنسان.

أمَّا الباحثون في علوم اللاهوت فيرونَ أنَّ عمر الإنسان على كوكب الأرض لا يتعدَّى عشرة آلاف سنة (؟؟؟!!!)- لابدَّ من التَّحفُّظ على هذا الرَّقم لأنَّ هناك دراسات أخرى تعيد وجود الإنسان على كوكب الأرض إلى ستِّين ألف سنة مضت مع ما يقتضيه ذلك من ضرورة إعادة دراسة معدَّل تطوُّر عدد سكَّان الكوكب، والعوامل المؤثِّرة فيه على مدى القرون - ومن

خلال دراسة معادلة التَّطوُّر في أعداد البشر ابتداءً من طوفان نوح، وإنقاذ من كلّ زوجين اثنين، يتَّضح وفق رؤية علماء اللاهوت، أنَّ معدَّل الزِّيادة سنويًّا هو٠٥٪؛ نظرًا لأنَّ عدد سكَّان العالم الآن هو حوالي سبعة مليارات إنسان. ولكنَّ المخيف في الأمر أنَّ الباحثين يشيرون إلى أنَّ العدد المثالي لسكَّان الكوكب هو فقط خمسمائة مليون إنسان. هذا يؤكِّد أنَّ كوكب الأرض بالفعل صارَ مزدحمًا بأكثر من طاقته على الاستيعاب، الأمر الذي يعني أنَّ البشريَّة تواجه بالفعل قضيَّة لابدَّ لها من حلول، خاصَّة إذا صدقت أبحاث دي جراي ووصلَ عمر الإنسان إلى خمسمائة عام أو تعدَّى ذلك ليصلَ إلى ألف سنة أو خمسة آلاف سنة.

obeikandl.com

نعم... متشائم... ولكن...!!!

يعتريني في أحيان كثيرة شعور طاغٍ بالتَّشاؤم حين أتأمَّل حال كوكبنا – الأرض، ومستقبل بني البشر.

أتمنَّى أن يكون هذا الشّعور في غير محلّه، وأن أشهدَ قبل أن أودِّعَ هذه الدُّنيا ما يطمئنني على مستقبل أبنائي وأحفادي وأقرانهم في كلِّ وطن وتحت كلِّ سماء.

أمَّا هذا التَّشاؤم فمبعثه ذلك الفيض المتدفِّق من أعداد الفقراء الذين يتوالدون كلَّ يوم إلى أن صارَ تعداد سكَّان العالم يتعدَّى السِّتَّة آلاف مليون من البشر. يا الله...هذا التَّكاثر الرَّهيب يأتي كلَّ يوم بملايين جدد، غالبيتهم العظمى من الفقراء سواء على مستوى الشُّعوب والدّول أو داخل البلد الواحد.

فبقراءة بسيطة للواقع المحيط بنا نكتشف أنَّ الشّعوب الغنيَّة هي أقلّ الشّعوب إنجابًا للمواليد، وداخل البلد الواحد نجد أنَّ أكثر الفئات خصوبة وإنجابًا للمواليد هم الطَّبقات الفقيرة. صحيح أنَّ هناك الكثير من التَّفسيرات الدِّينيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة لهذه الظَّاهرة، ولكنَّ تلك التَّفسيرات لا تضع حلولًا لمشكلات الجوع والفقر الذي ستعاني منه الملايين مع تقدُّم السِّنين...ولن توقف عمليّة استنزاف الموارد الطَّبيعيَّة المحدودة وغير المتجدِّدة.

فالأرض هي ذاتها منذ آدم عليه السَّلام، لا تتمدَّد ولا تتضاعف رقعتها، وموارد مياهها وهوائها وتربتها هي ذاتها منذ بدء الخليقة، الذي تغيَّر فقط

على مدى القرون هو تعداد البشـر وتفنّن الإنسان في كيفيَّة الهجرة والارتحال إلى بقاع جديدة غير مأهولة كلَّما ضاقَ به الحال حيثُ يعيش، وأيضًا تفنّنه في استخدام نعمة العقل التي وهبه إيَّاها الخالق لتطوير واستحداث ماهو جديد، وما يساعده على استغلال الموارد الظَّاهرة والباطنة من حوله للتَّغلُّب على مشكلات الحاجة قبل أن تتفاقم.

السّؤال هو إلى متى ستظلّ هناك إمكانيَّة أمام الإنسان للتِّرحال إلى بقاع جديدة على ظهر الكوكب، وقد صارت الدّول تقيم الأسوارَ المنيعة حول قاطنيها لمنع المزيد من تدفُّق الغرباء، وإلى متى ستظلّ الموارد غير المتجدِّدة قادرة على الوفاء باحتياجات المليارات من البشر الذين تُضاف إلى أعدادهم القائمة ملايين جديدة كلّ يوم.

أغمضْ عينيكَ وتخيَّل هذا العالم بعد مائة عام، هل سيتبقَّى نفط تتحرَّك به عجلة الحضارة؟؟؟ هل ستتبقَّى معادن في الصَّحاري والسُّهول يمكن استخراجها وتصنيعها وتطويعها لخدمة البشر؟؟؟ هل ستتبقَّى صخور لم يتم تفتيتها واستخراج ما في باطنها؟؟؟...

أين سيذهب الإنسان؟؟؟

هناك مأثورات تذكر أنَّ البشريَّة تتعرَّض لكارثة طبيعيَّة كبرى كلّ عشـرة آلاف سنة يتمّ فيها تخلُّص الأرض من الجزء الأكبر من عبء سكَّانها؛ حيث يبدأ التَّوالُّد والعمران من جديد، فهل نتوقَّع هذه الكارثة من البحر أم من السَّماء أم من بني البشر أنفسهم حين يشتعل أوار حرب نوويَّة طاحنة لا تبقي ولا تذر.

نود لو أفاقت البشريَّة وتوافقت على معايير لضبط هذا الفيض من التَّوالد يتم فرضها على الفقراء قبل الأغنياء، أو أن ينجح العلماء والباحثون في

استكشاف مواقع وكواكب جديدة في فضاء الله الفسيح يمكن أن يرحل إليها بعض ممن ستضيق بهم الأرض لا محالة، أو أن تتفتَّق عبقريَّة غير مسبوقة عن اكتشافات تحلّ مشكلات الزّحام على كوكب الأرض خاصَّة زحام الفقراء.

obeikandl.com

عن الموت... وغربة الإنسان

هل واجهت يومًا طائر الموت الحزين؟؟؟

هل اختُطِفَ من حياتك عزيز أو حبيب، وأخذه بعيدًا إلى حيث اللاعودة...؟؟؟

هل عايشتَ تلك اللوعَة وذلكَ الوجع المضني الذي يهاجم روحكَ حين تكسر ألقها تلك اللحظة المباغتة...؟؟؟

هل توقَّفتَ أمام فراق غالٍ لتكتشفَ مدى ضعفك وقلّة حيلتكَ، وحتميّة استسلامك لقدر لا تملك إزاءه سوى حزن وكلمات وداع تردِّدها دون أن تدري شيئًا عن صداها؟؟؟...

هل أجبركَ الموت على معايشة تلك الغصَّة المشبعة بمرارة فراق أبدي لمن أحببتَ أو عاشرتَ أو رافقتَ في رحلة الحياة...؟؟؟

غرباء نحن في هذا الكون...ضيوف على الدُّنيا، وعلى أحبَّائنا. رحلتنا مع الزَّمن قصيرة، أعمارنا قصيرة، جميعها لا تتعدَّى لحظات، نمضي بعدها في رحلة الأبديَّة كما أرادها لنا خالق الأكوان ومدبِّر شئون الكائنات.

صحيح أنَّ طائر الموت يحلِّق فوق رءوس الجميع، وصحيح أنَّ اللهَ أخبرنا بمغزى وجودنا في هذا العالم، وصحيح أنَّ عقولَنا وقلوبَنا تؤمن بأنَّ اللهَ قدَّر الموت والحياة ليبلونا أيُّنا أحسن عملًا، كلُّ هذا صحيح، ولكن، في لحظة مواجهة الموت، نضعف، نحزن، تبكي قلوبنا، وأحيانًا يتسلَّل الشَّيطان ليطرح على الأرواح الملتاعة عشرات الأسئلة وعلامات الاستفهام.

فالموت، هو لحظة فاصلة بين عالمين... هو العتبة أو الجسر الذي نعبره إلى حيثُ لا ندري كيف ستكون كينونة أرواحنا بعد أن تبلى الأجساد...

ما نعرفه هو أنَّنا، نمضي، تاركين أولئكَ الذين أحبّونا، وتاركين أماكننا خالية في عوالمهم ليعيشوا مع الوحشة والاشتياق إلى أن تحينَ ساعة رحيلهم...

حين نواجه الموت وما يحمله إلينا من رياح الوجد وأعاصير الألم، لا ملجأ لنا نحن البشر سوى شاطئ الإيمان، تلك الواحة التي أهداها إلينا الخالق، حيث يمكن لوجداننا المتعَب أن يستريح مع الأمل في لقاء مَن أحببنا... هناك في عالم آخر... أجمل وأروع، وبلا موت أو أحزان أو دموع.

obeikandl.com

قلوبنا لا تعرف الحب...

كثيرًا ما ظلمنا قلوبنا المتعَبة، وكثيرًا ما توهمنا أنَّ نبضها الذي لا يتوقَّف إلَّا بالموت، يهتف باسم الحبيب أو المعشوق، وكثيرًا ما تغنينا شعرًا ونثرًا في القصائد والمعلَّقات والرّوايات والكتب بأولئك الذين تعشقهم قلوبنا، وكثيرًا ما نحاول أن نجدَ تفسيرًا لمشاعرنا الإنسانيَّة، أو موقعًا في أرواحنا وأجسادنا، يكون وحده مصدرًا لتلك الومضات والارتعاشات الأقرب إلى فراشات جميلة ملوّنة تملأ دنيانا حين نرى طيف الحبيب، أو نبعًا لذلك الحزن الممض حين نفارق غاليًا أو عزيزًا رحل عنَّا، فلا نجد إلَّا قلوبنا التي نحسّ بخفقاتها تعلو أو تتسارَع عند نشوة اللقاء أو أحزان الفراق.

ولكن... هل تملك قلوبنا القدرة على الحبِّ أو الكره أو الحزن أو الفرح...؟؟؟

هذا التَّساؤل لم يكن مطروحًا حتَّى قام رائد جراحة القلب الشَّهير كريستيان برنارد بإجراء أوَّل عمليَّة جراحيَّة ناجحة لنقل قلب إنسان تُوفِّي إلى آخر يعاني تلفًا في قلبه لا يمكن علاجه، كان ذلك على ما أذكر في ثمانينيَّات القرن الماضي، منذ ذلك التَّاريخ بدأ الاهتمام بإثارة هذا الموضوع. فلم يكن أحد يدري كيف سيشعر هذا الإنسان الذي تمَّ نقل القلب إليه. هل سيعاني اختلاط المشاعر ويمارس الحبّ والكراهية والفرح والحزن على طريقة صاحب القلب الأصلي الذي تُوفِّي، أم أنَّه سيكون صفحة بيضاء محايدة؟؟؟

من النَّوادر التي رواها رائد جراحات القلب المصري العالمي مجدي يعقوب أنَّه تمَّ نقل قلب شاب توفي حديثًا إلى سيّدة مسنَّة، وكان هذا الشَّاب يعشق قيادة الموتوسيكلات، وبعد نجاح العمليَّة، ومن منطلق المتابعة العلميَّة

للحالة تبيَّن أنَّ السيّدة صارت تعشق مشاهدة مسابقات الموتوسيكلات، الأمر الذي تمَّ إخضاعه للتَّحليل والبحث والدِّراسة إلى أنْ تأكَّد للعلماء أنَّ هذا الميل لا علاقة له بالقلب المزروع وصاحبه، وإنَّما هي مسائل نفسيَّة سلوكيَّة.

خلاصة ما أثبتته تطوُّرات العلم الحديث التي انتهت إلى نقل القلوب من أفراد توفوا حديثًا إلى آخرين أحياء، ونجاح تلك العمليَّات بنسب عالية، هو أنَّ قلوبنا التي نتغنَّى بخفقانها عندما تحبّ أو تعشق أو تكره، ما هي إلَّا مضخَّات تؤدِّي دورًا ميكانيكيًّا آليًّا تنقل من خلاله الدَّم إلى الشَّرايين والأوردة لتستمرَّ آلة الحياة في عملها. أمَّا ما نشعر به من حبٍّ أو كره أو انفعال تجاه موقف أو حدث نمرّ به، فكلّ هذا ما هو إلَّا تنفيذ لأوامر وإشارات مبعثها المخ الذي تتحكَّم غرف أسراره المغلقَة في كلّ سكناتنا وهمساتنا.

وإذا كان الإنسان في طريقه لكشف الكثير من أسرار عمل المخ ودقائقه، إلَّا أنَّ السِّرَّ الإلهي الأعظم سيظلّ هناك... في روح الإنسان... ومضة الأبديَّة المجهولة التي أرادَ الخالق أن يحتفظ بأسرارها لذاته جلَّت قدرته.

الحريَّة... والثَّمَن

حين نطق الشَّاعر الفرنسي فولتير بعبارته الشَّهيرة "أيّتها الحريَّة كم من الجرائم ترتكب باسمك"، وكان في تلك اللحظات يتأسَّى على القتلى، الضَّحايا ممَّن أطاحت مقصلة الثَّورة الفرنسيَّة برءوسهم في الميادين العامَّة، لم يكن يدري أنَّ التَّاريخ ستدور عجلته، وأنَّ عبارته تلك ستكون بعد أكثر من مائتي عام أقرب إلى شعار لليوم واللحظة، وبحيث يجب أن تصير العنوان الفرعي لأيَّة دراسة أو بحث أو مقال أو تقرير ممَّا تحفل به أجهزة ووسائل إعلام زمننا الذي نعيش فيه.

كانت عبارة فولتير تلك والتي لا أدري ما إذا كانت بيتًا في قصيدة أو مجرَّد عبارة عابرة جادتْ بها قريحته وهو يمرّ بالقرب من ميدان الباستيل، حيث المقصلة الكبرى التي أقامها الثّوَّار الفرنسيُّون.

كانت تلك العبارة بمثابة موقف فكري وفلسفي من جانبه تجاه مبدأ من مبادئ الثَّورة ذاتها، رآه يُنتهك ويُساء إليه، ويسقط ضمن ضحايا الفوضى والعنف وشهوة الانتقام التي أحاطتْ بأحداث تلك الأيَّام. كان مبدأ الحريَّة هو الشِّعار الأوَّل من شعارات الثَّورة الفرنسيَّة الثَّلاثة قبل المبدأين الأخيرين (الإخاء والمساواة).

لقد مضى أكثر من قرنين على ثورة الشَّعب الفرنسي، وبعد أن نجحتْ تلك الثَّورة في تخطِّي مراحل العنف والفوضى والانقلابات استطاعت أن تصل بشعب فرنسا إلى شاطئ الحريَّة الحقيقيَّة، وهو الواقع الذي يجعل طرح عبارة "الحريَّة" والجرائم التي ترتكب باسمها مطروحة بقوَّة في أسواق

السِّياسة هذه الأيَّام، وتستدعيها الذَّاكرة في المواقف المشابهة التي تمرّ بها الإنسانيَّة بغضِّ النَّظر عن مساحات التَّشابه أو الاختلاف.

فالحروب التي يشنّها البعض حيث يقتلون ويستحلّون ويستبيحون الأوطان والأعراض تتمّ باسم (الحريَّة) والمقاومون الذين يقتلون من أفراد الجيوش الغازية ما تصل إليه أيديهم وأسلحتهم، يقومون بذلك من أجل حصولهم على (الحريَّة)، وحتَّى أولئك الذين يمارسون الإرهاب ويستخدمون العنف وسيلة لتوصيل رسالتهم، هؤلاء أيضًا يحلمون على طريقتهم (بالحريَّة)... فهل كان فولتير يتنبَّأ بكلِّ هذه الأوزار التي سيحملها البشر من بعده لمفهوم (الحريَّة)؟...

وهل ينتهي ما نراه الآن ونعاني من وطأته، إلى نَسَق من الاستقرار تزهر في ربوعه وتثمر (الحريَّة) ويجني من قطافها جميع بني البشر؟

أم أنَّ ما حَدَثَ في فرنسا الثَّورة غير قابل للتّكرار في زمننا وظروفنا بحكم اختلاف الزَّمان واختلاف المكان...

الفقر... لماذا يحاصرنا؟؟؟

الفقر، لماذا يمسك برقاب شعوب بذاتها من شعوب العالم؟؟؟

ولماذا تظلّ طبقات اجتماعيَّة بذاتها تدور في حلقة الفقر المفرغة دون أن تجد طريقًا للخروج والانتقال إلى وضع أفضل؟؟؟

هذه التَّساؤلات يطرحها واقع المعاناة الذي يعيشه المواطن في أقطار العالمين العربي والإسلامي. حيث باستثناء عدد قليل من تلك الدّول لا يتعدَّى أصابع اليدين (ومعظمها تعيش حالة الرَّخاء النِّسبي اعتمادًا على ريع ناتج عن ثروات طبيعيَّة دون جهد أو عناء من جانب المواطنين أنفسهم) بينما عدد الدّول العربيَّة والإسلاميَّة مجتمعة يبلغ حوالي ست وخمسين دولة.

لقد تعلَّمنا في دروس التَّاريخ والجغرافيا أنَّ الفقرَ الذي تعيشه دول (المستعمرات السَّابقة) ناتج عن قيام القوى الاستعماريَّة باستنزاف ثروات وإمكانات شعوب تلك المستعمرات إلى الدَّرجة التي استطاعت عندها الدّول الاستعماريَّة تكوين البنية التَّحتيَّة والتَّراكم الرَّأسمالي الذي جعلها تصل إلى مستوى الوفرة والتَّقدُّم، على حساب تلك الدّول التي تركت نهبًا للفقر والجهل والتَّخلُّف.

السُّؤال هنا يفرضه واقع صار (أبديًّا) بالنِّسبة لشعوب الدّول (الفقيرة). لقد مرَّ أكثر من خمسين سنة منذ حصلت تلك الدّول على استقلالها. وعلى مدى هذه السّنين الطّوال لم يتغيَّر الحال إلَّا إلى الأسوأ. فما هو السِّـرّ الذي يجعل شعوبًا لديها الطَّاقة والقدرة والموارد والبشـر، جامدة في مكانها في أفضل الأحوال، هذا إذا لم تتراجع إلى الوراء.

لماذا استمرَّ الاستسلام إلى وحش الفقر والعوز كلّ هذه السِّنين؟ وإلى متى تعلِّق هذه الشُّعوب نتائج كسلها وتراخيها واستسلامها على شمَّاعة القوى الاستعماريَّة؟

هل الدّكتاتوريَّة السِّياسيَّة هي السَّبب؟

هل غياب الحراك الدِّيمقراطي الحقيقي هو السَّبب؟

هل التَّفسير الخاطئ لمبادئ الأديان هو السَّبب؟

هل القوى الكبرى المسيطرة على مقدَّرات العالم سواء بطريق مباشر أو غير مباشر هي السَّبب؟

أسئلة كثيرة مؤلمة، الإجابة عنها قد تتباين وتختلف وفق الزَّاوية التي ينظر من خلالها المتسائل، ولكن تبقى حقيقة واحدة، هي حاجة تلك الشُّعوب لأن تستيقظ وتأخذ صراع الحياة والتَّقدُّم بالجديَّة التي يستحقّها، وتتخلّى عن التَّواكل والانهزاميَّة، والاستسلام لاستبداد الحكومات التي فشلت جميعها على مدى نصف قرن ليصل الحال إلى ما هو عليه من مرارة ومعاناة على امتداد خارطة دول العالمين العربي والإسلامي.

obeikandl.com

هل نودِّع قريبًا هذا الزِّحام على الأرض؟؟؟

المرّيخ، ذلك الكوكب الحلم...

هل يكون يومًا بمثابة العالم الجديد لعالم ما بعد مائة أو مائتي سنة مثلًا... مثلما كانت الأمريكتان حين تمَّ اكتشافهما قبل خمسمائة سنة؟؟؟

وهل يتمكَّن العلم من إيجاد حلول لمشكلات الأرض، وزيادة أعداد سكَّانها، وشحّ الموارد ونضوب ما هو متوافر منها، عن طريق استعمار الفضاء مبتدئًا بكوكب المرّيخ؟؟؟

وهل هذا الحلم هو ما جعل العلماء يتقافزون فرحًا أمام عدسات ومصوري أجهزة الإعلام في معمل وكالة الفضاء في مدينة باسادينا حين وصلتهم أولى إشارات الرَّاديو من المركبة الفضائيَّة الصَّغيرة **Rover Spirit** محمَّلة بعشرات الصّور عن الموقع الذي هبطت فيه بعد أن أنهت رحلة طولها ثلاثمائة مليون ميل (٣٠٠ مليون ميل) لتصل إلى الكوكب الأحمر؟؟؟

لقد كانت المجموعة الأولى من الصّور التي التقطتها المركبة الصَّغيرة، هي لأحد الأودية القاحلة على ظهر الكوكب، والتي يعتقد العلماء أنَّها كانت بحيرة مياه عذبة في مراحل سابقة من التَّاريخ. كانت القفزة التي حقَّقها العلم بالهبوط على سطح المرّيخ ذلك اليوم... هي التي حَدَت بالعالم الشَّاب **Steve Squyres** لأن يرفع إصبعيه بعلامة النَّصر في مؤتمره الصَّحفي وهو يقول:

"This is our new neighborhood" أي: "... هذه هي ضاحيتنا الجديدة..."، وهي الجملة التي تعني أنَّ عالمنا على أعتاب مرحلة

ينطلق فيها إلى الفضاء؛ حيث يمكن للإنسان أن يبدأ رحلة (العمران) للكون الواسع الذي ظلَّ حتَّى الأمس القريب مقصورًا (كمفهوم) على الأرض باعتبارها الكون، وباعتبارها العالم الذي حدَّثتنا عنه الكتب المقدَّسة.

جاء الاكتشاف الجديد لكوكب المرّيخ، وكأنَّه تأكيد لما ورد بالقرآن الكريم حين تحدَّث عن معجزات أزمنة قادمة.

إنَّ المتشائمين من علماء الاقتصاد من أمثال ريكاردو أو شومبيتر أو غيرهما من أولئك الذين نظروا إلى مستقبل البشريَّة عبر مناظير حالكة السَّواد لم يروا عبرها إلَّا الصِّراعات على الخبز وعلى مصادر الحياة قد تجاهلوا، أو ربَّما نسوا أنَّ هذا الكون الواسع له خالقه ومدبّر شئونه، وأنَّه أبدًا لن يترك الإنسان ليضيع أو يموت جوعًا... ولكن كيف سيكون حلّ المعادلة الصَّعبة على مدى القرون القادِمة...؟؟؟

ليتنا نستطيع العيش حتى نرى تلك الأزمنة ونعايش أحداثها....

obeikandl.com

العلماء... ضحايا عبقريَّاتهم

لماذا يقتلون العلماء؟؟؟

ومَن هم، أو ما هي تلك الجهات الشّيطانيَّة المختبئة خلف الحجب الكثيفة، التي تقوم برصد العباقرة على امتداد خارطة الكون وتتصيَّد أكثرهم تميزًا، وأقواهم عبقريَّة، لتخلّص البشريَّة منه وكأنَّه آفة أو حشـرة لا يجب أن تبقى أو تستمرّ.

كانت الصُّدفة وحدها هي التي قادت أصابعي إلى مؤشِّر راديو السَّيَّارة لأتوقَّف عند حوار على إحدى المحطَّات الإذاعيَّة. كان الحوار في إطار برنامج إذاعي يتحاور مضيفه مع أحد العلماء على الجانب الآخر. كان موضوع البرنامج هو العالم البريطاني القتيل البروفيسور ديفيد كيلي، الذي وُجِدَتْ جثَّتُه بالقرب من منزله، وقد قطع أحد شرايينه ليظلَّ المسكينُ ينزف في صمتٍ حتَّى الموت، أو هكذا تمَّت إذاعة القصَّة وتصويرها للعالم.

وبغضِّ النَّظر عن خصوصيّة حالة البروفيسور كيللي والتي في إطارها كان دخوله إلى عشّ الدَّبابير، حيث شياطين الاستخبارات الأمريكيَّة والبريطانيَّة والإسرائيليَّة بعد شهادته الخطيرة أمام إذاعة الـ بي. بي. سي. بشأن الحرب على العراق وكذب مبرّراتها، إلَّا أنَّ المثير للانتباه في الحوار الإذاعي الذي استمعت إليه هو ما تطرَّق إليه المتحاوران من حقائق تؤكِّد أنَّ العلماء يتمّ اغتيالهم والقضاء عليهم في صمت مريب.

وفي هذا السِّياق كان اغتيال عالم بيولوجي أمريكي في جامعة كاليفورنيا العام الماضي، وأيضًا اغتيال عالم آخر في جامعة ممفيس في العام ذاته، بل إنَّه

خلال الفترة من عام ٢٠٠٠م وحتَّى الآن (عام ٢٠٠٣) تمَّ اغتيال اثنين وعشرين عالمًا من علماء الكيمياء في مناطق مختلفة من العالم.

التَّساؤلات التي طُرِحَتْ أثناء الحوار أشارت إلى القول بإمكانيَّة تورُّط جهات معيَّنة لها أغراض خبيثة تسعى إلى قتل العلماء الذين يعملون على تطوير (أدوية للتَّطعيم والتَّحصين من الأمراض الفتَّاكة) حيث يرى بعض الخبثاء أنَّ حلَّ مشكلات العالم تكمن في تخفيض عدد سكَّانه من خلال ترك الأمراض لتقوم بالمهمَّة.

رأي آخر تطرَّق إليه الحوار يتمثَّل في مصالح شركات الأدوية العملاقة، التي ستتعرَّض للإفلاس إذا ما تحوَّلت البشريَّة إلى كتل من الأصحَّاء الخالين من الأمراض. الحقيقة المؤكدة هي أن العلماء العباقرة في كافة دول العالم يتعرض أغلبهم للقتل أو الاغتيال من جانب قوى خفية لا يعلمها أحد. وإن كان البعض يطرح سببًا إضافيًّا يتمثل في الصراعات السياسيَّة التي قد يكون لها أيضًا دور في قتل العلماء الذين ينتمون لدول بذاتها أو مناطق جغرافيَّة بذاتها ترى بعض الأطراف أنَّها لا يجب أن يكون لديها علماء حقيقيُّون.

شبابنا في المهجر... سؤالٌ حائر

دُعِيْتُ للحديث خلال ندوة نهاية الأسبوع التي يعقدها المركز الإسلامي في كلير مونت في ولاية كاليفورنيا. وهي النَّدوة التي يعقدها المركز الإسلامي لمجموعات الشَّباب في المرحلة العمريَّة ما بين أربعة عشر عامًا إلى التَّاسعة عشر عامًا في إطارما يُسمَّىYouth Group.

الحاضرون مجموعة من الفتية والفتيات لدى كلٍّ منهم موهبة معيَّنة في مجال معيَّن من مجالات الإبداع. استمعتُ إلى مناقشاتهم، وإلى حواراتهم مع المشرف على المجموعة، ومع بعضهم البعض. وبقدرما أسعدني النّضج والوعي الذي يتَّسم به هؤلاء الشَّباب، بقدر ما أعدت طرح أسئلتي ذاتها على نفسي، وهي الأسئلة القديمة المتجدِّدة.

فهؤلاء الشَّباب – فتية وفتيات – يشعرون بكمٍّ كبيرٍ من مرارة الاغتراب والغربة عن ثقافة مجتمع يحيط بهم، وفرضت عليهم الأقدار أن يتعايشوا معه ويعيشوا وفق نظمه وتقاليده. أحسستُ في أعماق كلِّ واحدٍ منهم درجة أو أخرى من الحزن الدَّفين.

نعم... أسعدني أن أرى فتيات في عمر الزُّهور يتحدَّثن ويناقشنَ ويستمعنَ بفخر واعتزاز، وشبانًا اقتطعوا من أوقاتهم ليشاركوا مع زميلاتهم في مناقشة همومهم وقضاياهم ومشكلاتهم، سواء مع الأسرة أو مع المدرسة أومع إدارة المسجد ذاته.

ولكن بقدر سعادتي تلك، بقدر ما تألَّمت وأنا أفكِّر في حقيقة ما يعتمل في أعماق هذه الزُّهور المتفتِّحة. فلا هُمْ قادرونَ على الاندماج في المحيط العام

للمجتمع بقيمه وعاداته، ولاهم شاعرون بأنَّهم جزء من التَّيَّار العام لهذا المجتمع، وبالتَّالي يتفاعلون معه بانطلاق ومرح وسعادة تناسب أعمارَهم الغضَّة، ولا أولياء أمورهم أو أسرهم قادرون على اتّخاذ القرار الصَّعب بحمل أبنائهم والعودة إلى الوطن، حيث يمكن لهم أن يعيشوا شبابهم دون شعور بالاغتراب أو العزلة أو الانفصال عمَّا يحيط بهم في إطار ما يطلق عليه -Segregation- خاصَّة في ظلِّ ظروف اقتصاديَّة واجتماعيَّة وسياسيَّة طاردة في البلدان الأصليَّة، حيث يسود الفقر والبطالة والمعاناة بمختلف صنوفها.

إنَّها معضلة حقيقيَّة يواجهها أبناء الجيل الأوَّل من المهاجرين، ويواجهها معهم الآباء والأمَّهات، متمثِّلة في الصِّدام المستمرِّ بين الطَّرفين، والهوَّة الواسعة التي تفصل بين عالميهما.

إنَّ الأبناء والبنات في مجتمع الاغتراب والهجرة في حاجة إلى كثير من رعاية واهتمام وتفهُّم من جانب الوالدين. إنَّهم في حاجة إلى الاقتراب منهم، وفهم عذاباتهم، وتعويضهم عن إحساسهم بالاغتراب. هم في حاجة إلى الكثيرمن الحبِّ والحنان والفهم والرِّعاية حتَّى يعبروا بسلام الفترة الصَّعبة من حياتهم فترة الشَّباب الأوَّل بكلِّ تعقيداتها ومعاناتها، والتي أُضِيْف إليها بالنِّسبة لهؤلاء هموم الحياة في وطن جديد لا يرحِّب بهم بقدر ما يتشكَّك في نواياهم، خاصَّة في عالم ما بعد الحادي عَشَر من سبتمبر ٢٠٠١.

العَدْل...؟؟؟

العَدْلُ قيمةٌ تفتقدها المجتمعات الإنسانيَّة منذ بدء الخليقة. هو نقيض الظُّلْم. الذي هو مرادِف لانتصار الشَّرِّ في صراعه الأبديّ مع الخير.

عبر فصول التَّاريخ، كانت محاولات الفلاسفة والمفكِّرين لتحقيق العدل بين البشر. كانت دعوات الأنبياء والمرسَلين لاستعادة ذلك التَّوازن في علاقات بني الإنسان، حيث يطغى الظّلم بلا رادعٍ أو كابح. أيضًا كانت جهود المصلِحين من العباقرة وبعض الحكَّام (رغم ندرتهم) تسعى جميعها إلى نشر مبادئ العدل بين النَّاس. ولكن، أبدًا ما نجحت أيٌّ من تلك الجهود أو المحاولات أو النَّظريَّات. لم تولد أبدًا المدينة الفاضلة في عالم الوجود. فشلت فلسفة أفلاطون والفارابي وسان سيمون. واغتيل المصلحون من كل الأديان والعقائد، وبقي الصِّراع بين الظُّلم المتجبِّر القويّ صاحب السَّطوة، والعدل، الضَّعيف، الخجول، المتواري دومًا خلف الكثبان والتِّلال.

الظُّلم ليس مفهومًا عبثيًّا مجرَّدًا، أيضًا ليس حالة بعيدة عن معترَك الطَّريق الحياتي لبني البشر في مختلف الأزمنة والأماكن. هو واقع يومي يعيشه الإنسان لحظة بلحظة، يكابد قسوته على مدى ساعات الليل والنَّهار. يتشكَّل ويتلوَّن وتتعدَّد مظاهره ومعانيه ليتجسَّد كظاهرة إنسانيَّة بشعة أينما اتّجهت وأينما حللت.

ليس الظُّلم فقط هو ذلك الواقع الذي تعيشه الأمم الضَّعيفة وهي تعاني سطوة الأقوياء وقهر الجبابرة. نعم... هذا واقع معاش، ولكنَّه ليس الواقع

الوحيد؛ فالظُّلم ظاهرة يعاني الإنسان وطأتها حين يحرم من حقٍّ من حقوقه. حين يتعرَّض لقهر الإرادة وكبت الرَّغبة، حين يتحكَّم في مصيره وحريَّته آخرون يملكون من النّفوذ أو السَّطوة أو القوَّة أو المال.

الظُّلْم هو أقسى وأبشع المشاعر والخبرات التي تتحطَّم تحت وطأتها كينونة الإنسان وثقته بذاته، وبمجتمعه، وأحيانًا بمعتقداته الدِّينيَّة ذاتها. فحين تتكاثف غيوم الظّلم ـ يتساءل الإنسان متشكِّكًا في كلّ ما يحيط بعالمه، وتحت وطأة الظلم، يستسلم الإنسان لموجات الاكتئاب التي تقضي حتَّى على رغبته في البقاء في عالم ظالم.

هل يدرك الظالمون بشاعة فعلهم...؟؟؟

هل يشعرون بفداحة الجرم الذي يرتكبونه...؟؟؟

هل يدرون أنَّهم بظلمهم وقسوتهم يحيلون العالم إلى غابة من البشاعة والقبح. وأنَّ العدل والرَّحمة هما الطَّريق نحو عالم بلا أحزان؟؟؟

obeikandl.com

التَّاريخ... صفحات؟؟؟

التَّاريخ يعيد نفسه... أحيانًا بصورة جادَّة، وأحيانًا بصورة كاريكاتوريَّة. هكذا تثبت مجريات الأحداث في كلِّ زمان ومكان.

يتغيَّر الأشخاص، وتتغيَّر الطّقوس، وتتغيَّر المسمَّيات، وتتبدَّل المواقع، ولكن يظلّ جوهر الحدَث، صراع الخير والشَّر، صراع الأقوياء والضُّعفاء، صراع الحقّ والباطل، يظلّ كلّ هذا هو الجوهر الذي يتكرَّر على مدى السِّنين.

مَن كان يتخيَّل أو يخطر بباله ذات يوم أنَّ الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة ستشنُّ حربًا على دولة عربيَّة؟؟؟

مَن كان يتخيَّل أنَّ الجيش الأمريكي سيقطع آلاف الأميال برًّا وبحرًا وجوًّا ليذهب ويحتلّ بلدًا عربيًّا، معلنًا بلا حياء أو خجل أو موارية أنَّه قوَّة احتلال، بل ويستصدر من هيئة تُسَمَّى (هيئة الأمم المتَّحدة) قرارًا يعترف (بالاحتلال) العسكري عنوة، وهو الحالة المنافية لكافَّة المواثيق والأعراف والقوانين والشَّرائع؟؟؟

ولكن لأنَّ التَّاريخَ يتكرَّر، فإنَّ جوهر (القوَّة) وغرورها واستخدامها لتحقيق الأهداف الاقتصاديَّة أو السِّياسيَّة أو الأيديولوجيَّة يظلّ هو الجوهر.

بل إنَّ دعاوي قوَّة الاحتلال ـ التي هي في حالتنا هذه ـ الولايات المتَّحدة الأمريكية ـ هي ذاتها الدَّعاوى التي كثيرًا ما ردَّدتها قوى الاحتلال والاستعمار على مدى القرون. ولو عدنا إلى الوراء لنقارن ادّعاءات ودعاوى الاحتلال الانجليزي أو الفرنسي أو الهولندي أو البرتغالي أو غيره، والصِّفات التي كان يطلقها على معارضيه من الوطنيين والرَّافضين للاستسلام له؛

لوجدناها بالضَّبط هي الادّعاءات والدّعاوى نفسها التي تردِّدها القوَّة الاستعماريَّة المعاصرة والتي تمثّلها الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، هذه القوَّة الفتيَّة الشَّابَّة التي اجتهد آباؤها الأوائل لكي يجعلوا من أرضها ملاذًا ومأمنًا وواحة للحريَّة والدِّيمقراطيَّة وسعادة الإنسان.

مَن كان يتخيَّل أن المبادئ العظيمة التي تمَّ إرساؤها في الدستور الأمريكي سيتم اختطافها ذات يوم وتقع رهينة في أيدي عصابة من المتطرِّفين الذين أحالوا الخيرَ الأمريكيَّ إلى شرٍّ، والحلمَ الأمريكيَّ إلى كابوس، والحريَّة الأمريكيَّة إلى استعمار وقهر وإذلال لشعوب أخرى؟؟؟

مَن كان يتخيَّل أنَّ عالمنا يدلف الألفيَّة الثَّالثة، وإذا بقوَّة الخير والحقّ والحريَّة تتحوَّل إلى القوَّة الاستعماريَّة الوحيدة بعد حليفتها إسرائيل؟؟؟

هل من قوَّة معادلة أو موازنة أو رادعة تظهر فجأة في سماء العالم فتعيد الاتّساق إلى كلِّ ما أصابه الاختلال في معادلة الكون؟؟؟

التَّاريخ يعيد نفسَه، وعجلة الزَّمن لا تتوقَّف، وعلى المتشائمين أن يعودوا إلى صفحات الماضي، ولحظتها سيودعون تشاؤمَهم حين يتأكَّد لهم أنَّ الكلمة الأخيرة في مصير الإنسانيَّة لن يحتكرها الأشرار مهما بلغَ جبروتهم.

قليلٌ من الفرح...قليلٌ من الحزن

نتساءَل عن لحظات السَّعادةِ والتَّعاسة في رحلة حياتنا القصيرة، تأخذنا أحيانًا دوَّامات الحزن... نشعر أنَّ العالم قد انتهى من حولنا... وأحيانًا أخرى ننتشي مع لحظة تسعدنا... فنتوهَّم أنَّنا قد امتلكنا الكونَ، وساعتها تتلوَّن الأشياء، وتشقشق العصافير، وتشرق الشَّمس في حياتنا من جديد.

غريبٌ هو أمرنا نحن البَشَر، نعلم أنَّنا ضيوفٌ على هذا الكونِ، نعلم أنَّ رحلة وجودنا هنا بالغة القصر، نعلم أنَّنا سنرحل، وسنرحل قريبًا إلى حيث لا ندري، ولم يخبرنا أحد ممَّن رحلوا قبلنا أين هم، أو ماذا يفعلون، أو كيف يعيشون.

نوقن – خاصَّة نحن المؤمنون– بأنَّ الجسدَ فانٍ، وأنَّ الخلودَ فقط لأرواحنا التي ترحل إلى عوالم لا نهائيَّة، حيث لا ندري عن مداها شيئًا، ورغم كلّ ما نعلمه عن أنَّ الموتَ هو الحقيقة المؤكَّدة في رحلة الوجود، إلَّا أنَّنا نبالغ في تمسُّكنا بالحياة. ونتمادى في التَّفاعُل مع لحظات الحزن أو لحظات النَّشوة كأنَّنا هنا – في هذا العالم – إلى الأبد.

وحين نتساءل عمَّا إذا كان في مقدورنا أن نلغي تلك المناطق السِّحريَّة الغامضة والغائرة في أعماقنا، حيث نشعر بالحزن أو يحتوينا الانتشاء إزاء مواقف محدَّدة نعيشها على مدى الأيَّام والسِّنين، تأتي الإجابة بالنَّفي، بمعنى أنَّ الإنسانَ لم يكن له خيار في أن يكونَ أو لا يكون، وبالتَّالي فليس أمامه سوى أن يكونَ كما خلقه الله – بشر– يفرح ويحزن، يسعد ويشقى، ثمَّ يحيا ويموت.... خياراتنا محدودة رغم أنَّنا كثيرًا ما نتوهَّم العكس، وإذا كان هذا هو واقع الحال، فلماذا لا نتعامل مع أحداث الحياة بشيء من العقل، وساعتها سنكتشف - أنَّ هذا العبقريَّ الذي نحمله فوق أكتافنا – يستطيع

أن يقودنا إلى طريق القناعة بأنَّ وقائع الأيَّام مُقدَّرة – وطالما الكثير منها لا نستطيع له دفعًا أو تغييرًا– فإنَّنا إذًا مطالبون بأن نتفاعلَ بحساب – وبلا إسراف – عندما تواجهنا لحظات تستدعي الحزن أو الغضب أو النَّشوة – فحياتنا رحلة مدهشة في قطار تنتهي رحلتنا معه في محطَّة قادمة، حيث يوسّدنا الثَّرى أجسادًا؛ لتنتقلَ أرواحنا إلى قطار آخرومحطَّات جديدة في رحلتنا الأبديَّة في عالم الخلود.

ويالها من رحلة...!!!

obeikandl.com

الأجيال...ولعبة الزَّمن...

تعاني الأسرة العربيَّة في المهجر من قضيَّة معقَّدة تتمثَّل في ازدواج الهويَّة الثَّقافيَّة والاجتماعيَّة، فالجيل الأوَّل من جيل الآباء والأمَّهات انتقلَ إلى المهجر محمَّلًا بتراثٍ ثقافيٍّ واجتماعيٍّ له سماته وخصائصه التي تتناقض مع سمات وخصائص المجتمع الجديد.

وفي إطار محاولات التَّكيُّف والمزاوجة، ينجح البعض، ويفشل البعض، ويقف البعض في نقطة الوسط بين النَّجاح والفشل، تاركًا الزَّمن وتتابع السِّنين؛ ليقوما بالمهمَّة الصَّعبة خاصَّة حين يأتي الدّور على الأبناء الذين يتمزَّقون عاطفيًّا وفكريًّا بين الهويَّتين، والثَّقافتين، والحضارتين، هويَّة وثقافة وحضارة الوطن الأمّ للآباء والأمّهات، وهويّة وثقافة وحضارة الوطن الجديد الذي ولد هؤلاء الأبناء على أرضه، حيث تشرَّبوا قيمه وثقافته عبر وسائل التَّربية، ومناهج التَّعليم، والإطار الاجتماعي، التي جميعها تمثّل منابع لتيَّار جارف من التَّأثير لا يستطيع أحد إيقاف تدفُّقه أو احتجاز مؤثّراته.

من هنا يقع الصِّدام بين الاثنين، بين الوالدين المعذَّبين بهموم الاغتراب وحنين الاشتياق للانتماء الأوَّل الذي لا يستطيعان منه فكاكًا، وبين الأبناء والبنات الذين أصبحوا بمثابة كيانات جديدة يستدعي التَّعامُل معها فهمًا وإدراكًا لمدى صعوبة الموقف الذي يعيشونه، خاصَّة في مراحل الطَّفولة والمراهقة.

هذا الواقع، وما يصل إلينا من أصداء لقصص وروايات عن صدمة الصّراع الثَّقافي والاجتماعي بين الجيلين من المهاجرين العرب يستدعي وقفة من الهيئات والمنظَّمات والمؤسَّسات العربيَّة الأمريكيَّة العاملة في المجالات الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة والثَّقافيَّة. تلك الوقفة قد تتطلَّب مبادرة من فرد أو

جهة أو مؤسَّسة يكون الهدف منها هو البحث في كيفيَّة توصيل رسالة التَّفاهُم بين الأبناء من جانب والآباء والأمَّهات من جانب آخر.

وحتَّى يتم إيجاد تلك المؤسَّسة التي ربَّما تنهض بمثل هذا العِبْء، فإنَّ الأسرة العربيَّة في المهجر، خاصَّة تلك التي أنجبت أبناءَهَا في أرض المهجر، ونشأوا في ظلِّ منظومة القيم التي تحكم الوطن الجديد وتصيغ العلاقة بين أفراده، هذه الأسرة مطالبة بأن تتفهَّم بوعي حقيقة أنَّه لم يعد في استطاعتها ـ والحالة هذه ـ أن تتعاملَ مع الأبناء بالمنطق الذي تمليه ثقافتها هي (أي الأسرة)، تلك الثَّقافة التي جاءت بها من الوطن الأمِّ.

فالأسرة العربيَّة مطالبة بأن تقتربَ من أبنائها بأسلوب جديدٍ تطرحُ معه جانبًا ثقافة (الأمر والنَّهي) التي نشأت ـ هي ـ عليها.

فالواقع الاجتماعي والثَّقافي الجديد للأبناء يختلف جملة وتفصيلًا عن ذلك الذي تتشبَّع به أرواح وعقول الوالدين.

الأسرة العربيَّة في المهجر مطالَبَة بدفع ثمن الاغتراب، ومن ثَمَّ المزاوجة قدر المستطاع بين المتناقضات؛ لأنَّ المؤثّرات التي يفرضها الإعلام، والتَّرفيه، والمدرسة، والأصدقاء، جميعها أقوى تأثيرًا على شخصيَّة الأبناء من مجرَّد أبوين يجترَّان ماضيهما خلف أربعة جدران، وهو الماضي الذي لا يعرف عنه هؤلاء الأبناء شيئًا.

إنَّها بالفعل قضيَّة معقَّدة، ربَّما لا تختلف عن مثيلاتها من قضايا كثيرة مثارة دومًا بين الأبناء والآباء في كافّة الأوطان والمجتمعات، بما فيها تلك المستقرَّة غير المهاجرة؛ ممَّا يستدعي بذلَ الكثير من الجهد والوقت لتقريب المسافات وجسر الفجوات.

أليس هؤلاء الأبناء والبنات أينما كانت السَّماء التي تظلّهم، مخلوقون لزمن غير زماننا... زمن يتغيَّر ، ويُغيِّر معه كلَّ شيء...؟؟؟

الليل...؟؟؟!!!

الليلُ عالمٌ من الأسرار... مملكة من العذريَّة والبراءة... رحلة من المناجاة...

هو رديف لمعاني الغموض التي تكتنف السِّحْر... والسَّهَر... والتَّأمُّل...

الليل عالمي الذي أعشقه...

وأتساءل كثيرًا دون أن أصلَ إلى شاطئ تستريح عنده تساؤلاتي: ما الذي يجمعني وملائكة الليل وحوريَّاته التي لا تراها العيون؟؟؟

هل هو غموض الصَّمت وسكون الكائنات؟؟؟

هل هي ذاتي الباحثة دومًا عن الغوص في البحار العميقة لماهيَّة الأشياء؟

هل هي ومضات الأبديَّة التي تجسّدها لحظات الظّلمة وتوالد وموت النّجوم على مدى ساعات الليل؟

تحتويني التَّساؤلات عن سرِّ هذا الشَّبق الذي يطبع علاقتي بالليل.

لماذا أمتلك العالم تحت جنح الليل حين أجلس وحيدًا أحدِّق فيما أراه، وما لا أراه من المجرَّات والكواكب والكائنات المجهولة هناك وراء الآفاق التي تحجب خلفها عوالم بعيدة أتخيلها ولا أراها؟؟؟

لماذا يأسرني جمال النُّجوم في ارتعاشات الأضواء المنبعثَة منها سواء كانت تعاني لحظات الاحتضار أو تتراقص انتشاءً بلحظة ميلاد؟؟؟

يأخذني الليلُ إلى الغوصِ عميقًا في أغوار ذاتي... أستعرضُ المجهولَ الذي يرافقني في رحلةِ الليل... عالم الأسرار... والذِّكريات... وصدى السِّنين... أسترجعُ صورًا لأحبَّاء رحلوا، أو سافروا، أو ابتعدوا، تاركين على صفحة الوجدان ظلالًا من الوجد والأحزان النَّائمة.

أتأمَّل أحلامًا أجهضتها شموس الأيَّام المتتابعة... وآمالًا لم يحقّقها تواتر السِّنين... ومجاهيل الطَّريق على امتداد الرِّحلة تثير الآلاف من التَّساؤلات التي تظلّ معلَّقة بلا جواب.

أفيق من خدر الالتحاف بعباءة الليل، وأنا أتأمَّل المعاني الكامنة في كلمة "يا ليل" التي يبدأ بها العشَّاق والمدَّاحون مواويل العشق وترنيمات الغرام... وحين أفيق من سكرة التَّأمُّل، تهاجم روحي موجات متدافعة من ذكريات كانت في يوم ما لحظات جميلة... ولكنّها تغيَّرت، وتغيَّر مذاقها... فصارت تحمل من مرارة الذكرى أكثر مما تضيء من مساحات التَّذكُّر...

أهرب إلى الحاضر من وحشة الماضي وذكرياته التي لن تعود... لا تتوقف أبدًا تساؤلاتي عن علاقتي بهذا العالم السِّحري الخاص، وتعزّ الأجوبة... ويظلّ الليل... بصمته وجلاله وأنفاس البشر الهاجعين في مراقدهم... والسَّهارَى ممَّن يرتشفون كئوسَ النَّشوة أو يعانون سكرات الألم... يظلّ الليل وحده الرَّفيق المحمَّل بأسرار البشر، وأسرار الأبديَّة... وتهجُّدات العابدين.

عملاقٌ لم يعد يعرف النَّوم...

بدأبٍ، وصمتٍ، وإصرارٍ، يتحرَّك العملاقُ، أو التِّنينُ... محدِّدًا هدفَهُ... واعيًا لعلامات الطَّريق ومطبَّاته... مدركًا أنَّ عليه التزامات، وأنَّ له حقوقًا... لا يستعجل الخطى... ولا يتباطأ أو يتلكَّأ أو يستسلم لإغفاءات (الأفيون) التي أضاعت أجياله في مراحل مضت من التَّاريخ.

إنَّها الصِّين... المارد المتثائِب... قال عنها نابليون الثَّالث منذ قرابة المائتي عام... "مارد نائم، دعه نائمًا... وإلَّا، هزَّ الدُّنيا إذا استيقظ"...

لم تفلح محاولات التَّنويم والتَّجهيل، والتَّخدير. استيقظَ المارِد من غفوته، وبدا جسده العملاق متحفِّزًا، وهو ينفض عن أطرافه غبار السِّنين... اليقظة الكاملة قادمة لا محالة.

الصِّين... بالزِّحام والبشر... بالفلسفة والحضارة والتَّخطيط المتأنِّي بعيد النَّظر... بسفن الفضاء التي عرفت طريقها نحو الآفاق البعيدة... بالاقتصاد الذي يبهر الكون من أقصاه إلى أقصاه... بالإنتاج الذي غزا البيوت في الأزقَّة والحواري كما احتلَّ الصَّدارةَ في قصور النّبلاء والأمراء...

الصِّين عملاق يمضي على طريق النَّهضة والنُّهوض غير عابئ بأطفال الحضارة، تاركًا لهم ضجيج الصّراخ، وإثارة الغبار، وطفوليَّة السّلوك، وعدوانيَّة المنهج، مدركًا تمامًا أنَّ أعمارَ هؤلاء قصيرةٌ، وأنَّهم لن يبقوا طويلًا في موقع القمَّة بعد أن وضعتهم دورة التَّاريخ حيث هم يحكمون قبضتهم حول رقاب العالم.

كان باستطاعة الصِّين أن تستردَّ أقاليمها الوطنيَّة السَّليبة بقوَّة السِّلاح، ولكنَّها لم تفعل، لم تحاول استعجال لحظة صدام أو تصادم مع لصوص الحضارة وقوى الاستعمار، فآثرت الانتظار حتَّى حانت اللحظة، وتمكَّنت من

استعادة هونج كونج، والأمر نفسه مع تايوان، لا يقلقها ضجيج المنتفعين ومرتزقة بيع الأوطان، لا تخيفها ترسانة رعاة البقر التي يزرعونها على حدودها من كلِّ جانب. تدرك ويدركون أنَّ لحظةَ تحرير تايوان قادمة، وأنَّ السَّفينة الشَّاردة لابدَّ أن تعودَ.

حين سئلتْ قيادة صينيَّة عن سبب عدم بثِّ لحظة إطلاق أوَّل سفينة فضاء صينية مباشرة على الهواء؛ لكي يشاهدها الشَّعب الصِّيني، كانت إجابة تلك القيادة أكثر بلاغة من كلِّ الخطط والاستراتيجيَّات. قال القائد الصِّيني أنَّهم يخشون (فشل) عمليَّة الإطلاق، وهو الأمر الذي قد يصيب شعبَ الصِّين (بالإحباط)؛ لهذا تمَّ تسجيل العمليَّة ثمَّ تمت اذاعتها بعد إتمامها بنجاح.

إلى هذا الحدِّ تحرص القيادة في الصِّين على معنويَّات الشَّعب.

لعلَّ هذا هو السِّرّ وراء الإعجاز الصِّيني في تحدِّيه لعوامل الفقر والتَّخلُّف، وفي تصدِّيه للقوى المناوِئة السَّاعية إلى إعادة عقارب السَّاعة إلى الوراء، وفي تحقيقه لمعدَّلات النّمو والنَّهضة التي يقف أمامها الجميع ذاهلًا... أو حاقدًا... أو... في حالات قليلة... معجبًا...؟؟؟

أشرارٌ...أم حكماء...!!!

هل حقًّا توجد هناك... في مكانٍ ما... في عاصمةٍ ما... جماعة علميَّة متخصِّصة ذات نفوذ واسع، تتحصَّن خلف مغاليق الغموض والسَّطوة والتَّأثير الذي لا يقاوَم، وهذه الجماعة أو المجموعة هي التي تباشر الإشراف المباشر على (ديموغرافيَّة) الحياة على كوكب الأرض؟

بمعنى أنَّ هذه الجماعة لديها الإحصاء الدَّقيق لتعداد البشر على الأرض، ومعدَّل الزِّيادة في هذا العدد على مدار اليوم والسَّاعة والدَّقيقة بل والثَّانية، وهذه المجموعة أيضًا لديها علمٌ كاملٌ ووعيٌ كاملٌ وتقديراتٌ واضحةٌ ومحدَّدَة بمدى مخاطر التَّزايُد السُّكَّاني على موارد كوكب الأرض، وكيف أنَّ البشريَّة في تضاعُف أعدادها على مدار السَّاعة تأكل الأخضر واليابس، وتستنزف الموارد غير القابلة للتَّجدُّد ممَّا يعني دمارًا لا محالة لمستقبل الإنسان على الأرض.

الأخطر في هذا الأمر هو أنَّ تلك المجموعة من العلماء والباحثين والمخترعين وصنَّاع القرار، لديها من القدرات والنّفوذ والتَّأثير ما تستطيع من خلاله التَّحكُّم في إشعال الحروب أو إخمادها، وتحديد الأعداد التَّقريبيَّة من البَشَر المطلوب أن يموتوا في تلك الحروب والصِّراعات والقلاقل، ومَن هم، وإلى أيّ مجموعات إثنيَّة أو دينيَّة ينتمون، أيضًا تتحكَّم تلك المجموعة في فيروسات الأمراض المعدية القاتلة التي تودي بحياة الآلاف، والملايين من البَشَر في مراحل مختلفة وفي ظروف مختلفة...؟؟؟

باختصار شديد، فإنَّ قلقَ العلماء إزاء عدم قدرة موارد كوكب الأرض على تلبية احتياجات البشر الذين يتكاثرون بمتواليات لا يمكن التَّحكُّم في

معدَّلاتها، هذا الواقع فَرَضَ على هؤلاء العلماء ضرورة الانعزال بعيدًا والتَّخطيط بهدوء من أجل التَّحديد الدَّقيق للأعداد المطلوب التَّخلُّص منها – من البشر – كلّ عام بهدف الاستمرار في وضع من التَّوازن بين الموارد والبشر، وبين البيئة والإنسان...

كان هذا هو مضمون الحوار الذي لا أدري ما إذا كان مجرَّد تخاريف الـ **Radio Talk Show** بعد منتصف الليل حيث ينام البشر، ويتصوّر المتحدّثون على الهواء أنَّ مستمعيهم إمَّا سكارى أو نائمون.

فقد كنتُ عائدًا من سهرة مع أصدقاء في مدينة بالم سبرنجس **Palm Springs** ، وكان الليل قد شارَفَ على أن يلملمَ عباءته مؤْذِنًا بانبلاج نهارِ يومٍ جديدٍ. كان الحوار بين المذيع وأحد علماء البيولوجيا عبر الهاتف. وقد أثارَ اهتمامي ما سمعته من ذلك العالم المتخصِّص الذى لم ينكر إمكانيَّة وجود مثل ذلك التَّنظيم أو المؤسَّسة أو الجماعة التي تخطّط لعمليَّات القتل المنظّم لبني الإنسان حتَّى يستمرَّ التَّوازن بين البشر والموارد على ظهر كوكب صار يئنّ من تضخُّم أعداد قاطنيه.

حقًّا إلى أين يمضي كوكبنا وأعداد سكَّانه، خاصة الفقراء، تتزايد بهذه المعدَّلات الرَّهيبة، بينما الموارد لا تتجدَّد، والاستنزاف لرصيدها يتضاعَف يومًا بعد يوم، وماذا سيتبقَّى لأجيال قد تأتي بعد مائة أو مائتي سنة من الآن...

السِّياسة... والثَّمن...؟؟؟

لماذا يكون قَدَر السِّياسي ومصيره مشبّعًا دومًا بالألم والمرارة والقلق وفي كثير من الأحيان بالسّجن أو النَّفي أو الموت، خاصَّة في دول العالم الثَّالث؟

لماذا – السِّياسة – وحدها – دون سواها من هموم واهتمامات البشر تحمل في ثناياها تلك الاحتمالات الرَّهيبة والتَّوقُّعات التي لا يمكن حساب أبعادها والتي تجعل من الخائن بطلًا قوميًّا، أو من البطل القوميّ سجينًا أو مطاردًا أو خائنًا أو مجرَّد جثَّة مقتولة على قارعة طريق...

ثارت هذه التَّساؤلات في ذهني وأنا أتابع مواكب الموت على أرض الرَّافدين، وغيرها من حواضرنا وصحارينا العربيَّة...عشرات ومئات وآلاف...من كلّ الفئات والطَّبقات والطَّوائف...

أتوقَّف طويلًا أمام الرّموز من الذين قضوا بعد الهجمة البربريَّة النّجسة على تراب العراق... ومن قبلهم العشرات والمئات على مدى التَّاريخ، وعلى امتداد خارطة الكون عبر عصوره المتتابِعة، ومن بعدهم أيضا العديد والعديد من القادة والرموز والكبار.

لم يكن ذلك المصير في الماضي هو ما أثار همّي واهتمامي، وإنَّما استمرار هذا الطَّائر المحلّق فوق رءُوس مَن يحملون هذا الهمّ ويعيشون به، فطبيعة الصِّراع بين البشر تنبِّئ بأنَّ المستقبل لن يكونَ أفضل حالًا من الماضي أو الحاضر، طالما البشر لم يستطيعوا تطويرَ آليَّات أكثر إنسانيَّة يديرون من خلالها صراعاتهم بشأن ما يعتنقون من مذاهب وعقائد وأفكار. لن تتوقَّف مواكب الموت، أو احتفالات التَّتويج بين متصارعي السِّياسة.

إنَّ قراءةَ التَّاريخ... الذي هو أيضًا، تُكْتَب صفحاته في أغلبها بمدادٍ من دم هؤلاء... تفتح على العقل أبوابًا واسعة للتَّأمُّل والنَّظر من زوايا عديدة إلى هذه المهنة، أو الوظيفة، أو الهمّ، أو الاهتمام. ولماذا يتعرَّض مَن يتصدَّى للعمل بها، أو الاهتمام بشئونها، إلى المآسي التي تكبر أو تصغر حسب دور الشَّخص ودرجة استغراقه في سحرها الأسود، وطبيعة مجتمعه الذي يحدِّد آليَّات إدارة الصِّراعات والخلافات بين أفراده وجماعاته؟

هل لأنَّ السِّياسة هي مهنة التَّغيير في مصائر البَشَر والأمَم، وبالتَّالي يجب أن تظلَّ أمانة ينهض بأعبائها الأنبياء وحدهم، وأمثالهم ممن يختارهم الرب من بين عباده؟؟؟

هل لأنَّها هي مهنة الحكم والإدارة، وبالتَّالي فهي تختزل كافَّة عناصر الصِّراع بين قوى المجتمعات الخيّرة منها والشّريرَة؛ ونتيجة لذلك فإنَّها تنتهي بصاحبها إلى إحدى نهايتين إمَّا القمَّة أو القاع؟...

إنَّ تاريخ العالم تزخر صفحاته بالنِّهايات المأساويَّة، والفواجع لأبطال وعظماء وصعاليك جذبتهم السِّياسة إلى عالمها المجنون، فكانت نهاياتهم أيضًا تحمل الكثيرَ من بصمات الجنون ومعاني اللامعقول.

ورغم أنَّ رجال السِّياسة – ضحاياها أو أبطالها – يعلمون الكثيرَ عمَّا قد ينتظرهم على طريق السِّياسة الوعر، ورغم أنَّ أمامهم عشرات المهن والاهتمامات ودروب الحياة التي تحمل لهم رغد العيش، وتتيح لهم التَّمتُّع بملذَّات الدُّنيا وأطايبها، وتؤمن لهم في النِّهاية الموت الهادئ، إلَّا أنَّهم يظلُّون عند قناعاتهم – منهم مَن يساوِم أو يهادِن أو يستسلِم أو يخوِّن، ومنهم مَن يظلّ وفيًّا لما يؤمن به، ولكنَّهم في جميع الحالات عرضة لأقسى وأبشع ما يمكن أن يتعرَّض له الإنسان.

الحبُّ...وصديقي العاشِق!!!

التقينا كما هي العادة بيننا في عطلات نهاية الأسبوع، لم يكن هو صديقي الذي أعرفه، كان شخصًا مختلفًا، متفائلًا على غير عادته، خاصَّة حين يتطرَّق حوارنا إلى السِّياسة وشجونها ومفارقاتها.

جلسنا نتبادَل الرَّأي في شئون الحياة وتصاريف الأقدار، حملت لي نبراتُ صوته معاني جديدة بدت وكأنَّها تسرَّبتْ إلى نهر حياته. رحتُ أتأمَّل ملامحه التي أعرفها، لم تعد كما هي... جبينه أقلّ تقطّبًا. ملامحه توشك أن تكتسي بمسحة رضا . عيناه تشعَّان بشيءٍ ما – جديد – لم أعهده فيهما من قبل.

أثارَ فضولي عمقَ التَّحوُّل الذي أراه. فهو صديقي الذي أعرف الكثيرَ عن دقائق حياته. سألته بخبث عما اذا كان لديه سرٌّ يخفيه.

ابتسمَ دون أن يريحني بجواب. أشرتُ إليه بأن ينظرَ إلى وجهه في المرآة ليرى كيف تبدو ملامحه. تحوَّلت ابتسامته إلى ضحكة عالية وهو يسألني عمَّا إذا كان حقيقة ما يُقال عن أنَّ ملامح وجوهنا تعكس دواخل ما نشعر به. أجبته بنعم، وأردفت بسؤاله عن المرأة.

صدرت عنه تنهيدة عميقة وهو يقول:

إنَّها كلمة السِّرِّ في حياتنا على الأرض. ثمَّ رَاحَ يعترف بما كان يتظاهَر بمحاولة إخفائه عنِّي. تحدَّث عن طول بحثه عن تلك المرأة، وكيف أنَّه تعثَّر أحيانًا، وسقطَ أحيانًا، وسارَ في الدّروب الخطأ أحيانًا، كيف أنَّ رحلة بحثه عن توأم الرُّوح أخذت منه تلك السَّنوات الطِّوال بين زواج وطلاق وعلاقات لم يكتب لها النَّجاح أبدًا. كيف أنَّه كان دومًا ضحيَّة ظلم النَّميمة

وعشَّاق الإشاعات في حين أنَّه يحمل في داخله قلب طفل أنهكته عذابات رحلة طالت أكثر مما ينبغي.

بدا جادًّا، وبدا لي أيضًا وكأنَّه يعيش قصَّة حبٍّ حقيقيَّة.

فصديقي ظلَّ طويلًا أشبه بعصفور يتنقَّل بين بساتين النِّساء باحثًا عن زهرة ليست مثل سواها من الزُّهور. وحين وجدها، فيما يبدو، ها هو يردِّد لي أنَّه وصلَ أخيرًا إلى حيث كان يجب أن يبدأ.

انتقلَ حوارنا من أحزان العِرَاق، وعذاب فلسطين- وغرور أمريكا، إلى المرأة وسحرها، وأهميَّة وجودها، وكيف أنَّها وحدها هي السِّرّ في سعادة الرَّجل وهي أيضًا مبعث شقاءه، ثمَّ كيف أنَّ العلاقة بين رجل وامرأة ليست علاقة فراش بقدرِ ما هي علاقة روح تظلّ هائمة بحثًا عن توأمها، أحيانًا يتمّ اللقاء، يكون الحبّ، وتبقى الحميميَّة والإخلاص على مدى رحلة العمر، وأحيانًا أخرى وهي الغالبة، لا يتمّ اللقاء أبدًا، وتظلّ أرواح البشر بين التِّيه والضَّياع والخطيئة، تتعثَّر، وتنهض، وتتعثَّر في رحلة لا تنتهي بحثًا عن ذلك الطّيف السَّرمدي لحلم لا يولد أبدًا...

ودَّعتُ صاحبي لأعودَ وأفكِّر مجدَّدًا في أسرار (الرُّوح) وعلاقة آدم بحوَّاء، وكيف أنَّنا مازلنا في حاجة إلى تفسيرات أكثر عمقًا لآيات الله في خلقه.

المفكِّر... حين يتقاعد...؟!!

إنَّه الأستاذ والمفكِّر، مثير الزَّوابع والبراكين، مفجِّر ينابيع الرُّؤية، والحكمة، وقارئ التَّاريخ، وكاتبه المذهِل، هكذا دوره على مدى تعدَّى السِّتِّين عامًا، كان ولم يزل.

إنَّه هيكل، الجورنالجي، الصَّحفي، الكاتب، المفكِّر، ثمَّ رجل السِّياسة والمسئول القيادي في مراحل عاصفة من تاريخ العرب الحديث.

احتفلت مصر ومعها الأوساط الفكريَّة والثَّقافيَّة والسِّياسيَّة العربيَّة بعد ميلاده الثَّمانين. عقدت النَّدوات، والمناظرات، وأقيمتْ على شرفه الاحتفالات الرَّزينة التي تليق بجلال دوره في عالم الصَّحافة والسِّياسة العربيَّة.

لم يكن بلوغه الثَّمانين من عمره مجرَّد شموع تُضَاء ليقوم هو بإطفائها محاطًا بتلاميذه وأحفاده، ولكن شموع هيكل كانت بمثابة أعمدة من نار ودخان أشعلها إعلانه المثير عن اعتزاله الكتابة والصَّحافة والسِّياسة والحياة العامَّة. فُتِحَتْ أبوابُ النِّقاشِ على مصَارِيعها، ولم يعد هيكل وقراره الإرادي المنفرِد هو القضيَّة، وإنَّما باتَ الأمر يتعلَّق بالتَّساؤل عن مدى أحقيَّة المفكِّر أو الكاتِب في الاعتزال.

وهل يستطيع هذا المخلوق المتمرِّد ـ الكاتِب ـ أن يوقفَ (تروس) عقله، ووجدانه عن الدَّوران، والتَّفاعل مع العالم وأحداثه وقضاياه، ومن ثَمَّ تكوين رأي ورؤية وموقف؟؟؟

هل قرار هيكل بالاعتزال تعبير عن حالة يأس أم رفض أم احتجاج.

لا يمكن لعقل هيكل أن يكونَ قد أفرغ كلَّ ما لديه، كما أنَّه لا يمكن لهيكل الإنسان أن يتوقَّف لحظة عن تأمُّل شئون أمَّته وأقدارها ومصيرها. كيف يمكن لهذا الرَّجل أن يعلنَ اعتزاله كلَّ شيءٍ وهو في وهج عطائه الفكري لم يزل، إنَّنا ندعو الله له أن يظلَّ قادرًا على العمل والقراءة والكتابة، ليكشفَ الكثير من أسرار الماضي، ومعضلات الحاضر، ومجاهيل المستقبل.

ولكنَّ السّؤال الذي طرحَهُ قرار هيكل لم يزل يلقي بظلاله، ويبعث بدوائر تفاعلاته في كافة أوساط الفِكر والثَّقافة والسِّياسة...

هل من حقِّ المفكِّر أن يعتزلَ الفكر...؟

وهل في استطاعته أن يفعلَ ذلكَ حتَّى لو أرادَ...؟

كتب هذا الموضوع كعمود في الجريدة قبل اثنتي عشرة سنة حين كان هيكل قد بلغ الثمانين.

obeikandl.com

هل ننعَم بالسَّلام على الأرض...؟

هذا السُّؤال الذي يبدو ساذجًا، يلخِّص معضلةَ الحياة البشريَّة وصراعات القوَّة، والعلاقة بين الخير والشَّرِّ، والخطأ والصَّواب، وغيرهما عشرات بل مئات المتناقضات. فالإنسان في حاجة إلى السَّلام، الذي يعني مهجعًا آمنًا ووطنًا آمنًا وطريقًا آمنًا وحياة بمجملها يسودها الشُّعور بالأمن والأمان.

البشريَّة جميعها، بصور متفاوِتة تفتقد هذا الشُّعور بالسَّلام مع النَّفْسِ والسَّلام مع الآخر...

ولكن لماذا تفتقد حياة البشر ذلك الإحساس بالأمن والأمان؟

هل هي الأيديولوجيَّات وصراعاتها؟

هل هي الأديان وتنافسها على عقول وقلوب البشر؟

هل هي المطامع الماديَّة وسعي القوى دائمًا لاستغلال الضَّعيف ونهب ثروته وممتلكاته؟

هل هو تكاثر أبناء آدم للدَّرجة التي جعلتهم يتصارعون بلا رحمة، كلٌّ منهم يحاول الاستئثار بأكبر قدرٍ من موارد أرض صارت محدودة بحكم وصول تعداد البشر إلى أكثرمن ستَّة آلاف مليون إنسان، في وقت ظلَّت فيه هذه الأرض كما هي دون أن تتضاعف أو تتمدَّد أو يضاف إليها جديد؟

وإذا كان الصِّراع هو السِّمَة الغالبة على طبيعة العلاقة بين التَّجمُّعات البشريَّة، فهل من الممكن أن يأتي يوم وتتحوَّل تلك العلاقة من الأنانيَّة والجشَع والطَّمع، إلى المحبَّة والإيثار والرِّضى بما هو عطاء الطَّبيعة لهذه البقعة أو تلك من بقاع الأرض؟

أم أنَّ الصِّراع والحرب والدَّمار وَإراقة الدِّماء هي قَدَر بني الإنسان إلى أن يرثَ الله الأرضَ ومَن عليها؟

ثُمَّ هل يمكن لقوَّة كبرى واحدة إذا ما انفردت بمقدَّرات العالم أن تكون قوَّة عادِلة؟

وهل تنجح تلك القوَّة العظمى في نشْر السَّلام بين تجمُّعات البَشَر بحكم ما تملكه من قدرات ماليَّة واقتصاديَّةً وعسكريَّة؟

كثيرة هي التَّساؤلات، ويظلّ الصِّـرَاع هو العلامة الفارقة على جبين حضارة بني الإنسان.

obeikandl.com

نهْر الدّموع...!!!

في زمن شحّت مسرَّاته... وتكالَبت مواجعه، يكون مجرَّد الصَّدَى البعيد لشقشقة عصفور أو ترنيمة ناي، دعوة للقلوب الكسيرة وللنّفوس المتعَبة لأن تنفض عن كاهلها غبار الانتظار اليائِس على ضفَّة الحياة.

فرغم إحساسنا أحيانًا بعبثيَّة الزَّمن، ورغم نعيق الكراهية، ورغم تواري المحبَّة في علاقات البشر، إلَّا أنَّ صوتَ الأبديَّة الذي تردّده دورات الليل والنَّهار لم يزل قادرًا على أن يحملنا نحن البشر إلى زمن المعجزات... حيث تتبدَّد أحزاننا، وتفارق أرواحنا كآبة اللاجدوى المطبقة بخناقها حول رقابنا خاصة في لحظات الضّيق.

أسعدني أن أشعر بأنَّ هناك مَن يقرأ بعضًا ممَّا نكتبه.

أسعدني أن أشاركَ الآخرين بعض عذاباتهم.

أسعدني أن أشعرَ بكلماتي وقد أثارت شجون المرأة العربيَّة في عالم الاغتراب.

وبقدر ما سعدت بذلك الحجر الصَّغير الذي ألقيته في بحيرة العلاقات – الرَّاكدة مياهها – بين الرَّجل والمرأة في مجتمعنا – بقدْرِ ما تألَّمت لشعوري بعمق الجرح الذي نكأته في روح وقلب ووجدان المرأة والفتاة العربيَّة ممَّن شرَّفنني بقراءة ما كتبت، وأيضًا بتكلُّف عناء الاتِّصال والمناقشة وإثارة قضيَّة على قدرٍ هائِل من الأهميَّة والحساسيَّة، خاصَّة بين أبناء جاليتنا العربية في المهجر الأمريكي...

فأنا موقِن بأنَّ المرأة العربيَّة هي حصن القيم، ونبع المبادئ في حضارتنا وتاريخنا، وأيضًا مستقبل أجيالنا.

من هذا المنطلق، فإنَّ نساءَنا العربيَّات وحدهنَّ يتحمَّلنَ أمانة الحفاظ على ما بقي لدينا ممَّا نعتزّ به ونفخر بين سائر الأمم والشُّعوب.

ولكن... وهذا هو السُّؤال الذي أطرحه أمام عالمنا، عالم الرِّجال من أبناء العرب. هل نطلب من المرأة ما لا نستطيع نحن أن نطلبه من أنفسنا؟

لقد هالتني قصص المعاناة والآلام، والعذابات بشتَّى صنوفها، التي تعيشها بعض من نسائنا بفعل ما يتعرَّضنَ له من إهانة ونكران، وأنانيَّة من جانب الرَّجل.

هل يعقل أن يرفعَ الرَّجل العربي يده ليعتدى بالضرب على امرأته التي تخدمه، وتقدِّم له سكنَ الحياة ورحمتها؟؟؟

هل يُعقل أن يطلبَ الرَّجل من زوجته المواظِبة على الصَّلاة وهو الذي يقضي أوقاته بين كازينو القمار وأوكار الرذيلة؟

إنَّ ما سمعته من كثيرات ممَّن لسنَ أطرافًا مباشرة فيما يروينَ، جعلني أشعر بأنَّنا نحن الرِّجال ممَّن ننتمي إلى حضارة العَرَبِ أو ثقَافَةِ العَرَبِ – أو (ندّعي) الإسلام – في حاجة إلى وقفة عميقة لمراجعة الذات.

وقفة نتَّقي فيها الله في نسائنا وبناتنا، وبالتَّالي نبدأ من جديد طريقًا متحضِّرًا لصياغة علاقتنا بهنَّ.

المرأة في حياتنا لم تخلق لكي تهان، أو تهدر كرامتها أو يطلب منها أن تكونَ ملاكًا، أو قدِّيسة في وقت نسمح لأنفسنا فيه أن نظلَّ شياطينًا نمارس الخيانة، ونهمل واجبات نسائنا، ونتمسَّك بالمظاهر الخائبة، والادِّعاءات الجوفاء... تاركينَ جميلاتنا من نساء وفتيات على قارعة طريق تحيط به الذِّئاب من كلِّ اتِّجاه.

الرَّجل العربي، والرَّجل المسلم، في هذا البلد وغيره من بلدان العالم، عليه الكثير تجاه رفيقة دربه، وعلى أساس المعاشرة بالإحسان أو الفراق بالمعروف بين شخصين تقاسما الحياة والجسد والرّوح لزمن قد طال أو قصر.

obeikandl.com

إنَّهم يقتلون الفضيلة...؟!!

نتأمَّل عالمنا الغريب وأحداثه وصراعاته.

نتأمَّل البَشَـر من حولنا في سلوكيَّاتهم وأفعالهم وأقوالهم.

ندقِّق فيما نسمع، وما نقرأ، وما نَرَى، ممزَّقين بين الحقائق والأكاذيب، ومعايير صارت مختلَّة.

نحاول البحث عن السَّلام مع النَّفس ومع الآخر وسط غابة كثيفة موحِشَة من مظالم البَشَـر وعدوانيَّتهم وأنانيَّتهم.

نتساءَل عن الجدوى والمصير إذا أصرَّ الإنسانُ على السّير في الاتّجاه الخطأ.

نحاول اللجوءَ إلى مَن بمقدورِهِ أن يعيدَ التَّوازنَ إلى حياة الإنسان على الأرض.

نفتِّش في أعماقِنَا عن ينابيع الحبّ، وشلَّالات الصَّبر لنتمكَّن من مواصلة الرِّحلة في ضباب النِّفاق وغيوم الأكاذيب ووحشة الظّلمة.

إنسان عصرنا تائه، مزَّقته آلة زَمَن لا يرحم، غامَتْ أمَامَ ناظريه بوصلة الحقيقة. صار يتخبَّط بين خطاياه وأحلامه المجهضة، وضعفه الإنسانيّ إزاء ما حوله، سواء كان ما حوله صحراءً قاحلةً أو رتلًا من الجنود أو رفاقًا في زنزانة، أو مجرَّد عابري سبيل في سوقٍ مزدَحِم يُبَاع فيه ويُشتَرى كُلّ شيء.

نتساءَل عن مصير الإنسان إذا ما تَمَادَى البَشَـر في إصرارهم على السَّير وراء دعوة الغواية ليضلواالطَّريق وتختلِط لديهم المفاهيم إلى درجة تهاوي الفضيلة وتواريها بعيدًا في الأركان المظلمَة. هل كان أحد يتصوَّر أن يأتي زمن يتولَّى فيه مهمَّة الوعظ داخل محراب الفضيلة منحرفٌ يعترف بسقوطه وانحرافه وتناقضه مع ما يدعو له؟

هذا ما حدث بالضَّبط، وهو حالة من ملايين الحالات التي تمتدّ من فراش الحبِّ بين رجلٍ وامرأةٍ إلى غُرَفِ صنع القرارات في الحرب والسَّلام، إلى غيرها من مواقع التقاء البَشَر، حيث يمارسون الخيانة والكَذب والنِّفاق.

الحالة التي نقصدها هنا هي تلك الخاصَّة بتحوُّل قسِّيس في الكنيسة الإنجليكانيَّة من رجلٍ سويٍّ له زوجة وأبناء وبنات إلى (شاذّ جنسيًّا) يُطلِّق زوجتَهُ ويهجر أبناءَه وينتقل ليعيشَ مع عشيقه الجديد (الرَّجل) ويمارسان معًا حياة الأزواج.

المصيبة الأدهى هي الاقتراع الذي تمَّ أمام المشاهدين وبحضور قاضٍ من أجل ترقية القسِّيس إلى درجة أسقف وهي الدَّرَجة التي تمثِّل مسئوليَّة وشرفًا داخل السِّلك الكهنوتي المسيحي.

دافَعَ المصوِّتون لصالح القسِّيس دفاعًا غريبًا عن موقفه، إن دلَّ على شيءٍ فإنَّما يدلُّ على مدى التِّيه وضياع الحقائق حتَّى الدِّينيَّة داخل مؤسَّسات هي أساسًا مؤسَّسات لرعاية الفضيلة.

أليس اللواط جريمة وفق أحكام الكتاب المقدَّس المسيحي الذي يدَّعي هؤلاء تمسكهم به؟

ماذا أصاب إنسان عصرنا وإلى أين يأخذه غروره.

أهمّ ما في القضيَّة أنَّ القسِّيس إيَّاه تمَّت ترقيته إلى أسقف مع الاعتراف الكامِل من الجميع بأنَّ من حقِّه أن يعيش مع عشيقه الرَّجل وأن يفعلَ ما يشاء...

ولله في خلقه شئون؟!!

عن المرأة وعالمها...

النَّجاح امرأة... والفَشَل امرأة... والعالم كلّه ليس سوى امرأة...

العَذَاب أيضًا امرأة... والعِشْق والوفاء والخيانة... جميعها امرأة... دومًا في تاريخ البَشَر، فتِّشْ عن المرأة...

هي دومًا هناك في كلِّ ركنٍ وكلِّ زاوية...

هي الحاضر والغائب...

هي ملهِمَة الشُّعراء... ومدبِّرة المكائِد...

هي الأمُّ، بحر الحنان الدَّافِق، وهي الابنة الرّءُوم...

هي الحبيبة والرَّفيقة وترنيمة الأمَل حين تجدب أهازيج الحياة... هي أيضًا الخائنة و... العاهِرَة... وربيبة الخطايا...

المرأة فضاء لا نهائي من الأسرار والتَّحوُّلات، في ذاتها، وفي العالم المحيط بها... فالمرأة الطِّفلة ليست هي المرأة الصَّبيَّة، ليست هي المرأة الشَّابَّة، ليست هي المرأة النَّاضجة... تتبدَّل وتتحوَّر وتتغيَّر مع أطوار السِّنين ومع طلعات القمر... تتفاعَل مع مسافات الزَّمن عبر روحها وجسدها وعواطفها لتكونَ في كلِّ لحظة من سنين حياتها امرأة مختلفة. هي ذاتها لا تدري عن عالمها الكثير...

تحيا تفاصيل الرِّحلة... تنسج خيوط الأحداث... دون أن تجهدَ عقلَهَا بالبحث في فلسفة كينونتها، تكتفي بالفعل، تاركة للرَّجل – طفلها المعذَّب – أن يحترقَ بالتَّساؤلات حين يطرحها جيلًا وراء جيل... وتأتي الإجابات قصائد من الشِّعْر، وروايات تخطّها خفقات القلوب، وجرائم يُهْدَر فيها دم الرَّجل، أو تقطع أطرافه، أو يلقى به في غياهب المجهول....

كثيرًا ما تتحدَّث عن الحبِّ، وكثيرًا ما تتعذَّب بافتقاد الحبِّ، وكثيرًا ما تلوم الرَّجل لأنَّه غير قادر على الحبِّ... وفي كلِّ الحالات نادرًا ما تدري المرأة معنى هذه الكلمة ذات الألف باب...

عالمها تسربله الأنانية...

وحبّها يتَّجه لذاتها... والرَّجل في عينيها ليس سوى طفل كبير – ومادام الطِّفل هو وليدها، فلا يهمّ كم من السِّنين يحمل فوق كتفيه... المهم أنَّها تدري كيف تروِّضه وكيف تشبع غروره الطّفوليّ البائس، وكيف تجعله هو – الرَّجل – يقع في شباكها الحريريَّة الفاتنة متوهِّمًا أنَّه هو البطل لقصَّة الحبِّ التي تهيِّئ – هي – له فصولها... فصلًا وراء فصل...

المرأة والرَّجل... هذا الثّنائي الذي عليه قامت رحلة الحياة...

أيُّهما أكثر قدرة على العطاء والوفاء؟؟؟

أيُّهما أكثر قدرة على الحبِّ بمعناه المجرَّد...

أيُّهما أكثر صدقًا وصبرًا وإخلاصًا حين تكشف الأيَّام عن بعضٍ من سوءاتها؟

حديث لا ينتهي، وتساؤلات الواحد منها له ألف جواب.

obeikandl.com

الكون وما لانعرفه...

كثيرًا ما نتأمَّل الكون الواسع المحيط بنا... وكثيرًا ما يحمل لنا عمق التَّأمُّل عشـرات ومئات من التَّساؤلات التي تضاعِف من حيرتنا إزاء ذواتنا... وإزاء الكون الهائل المجهول.

بالأمس أعلنَ العلماء في وكالة الفضاء الأمريكيَّة عن اكتشاف جديد للتّلسكوب الفضائي (هابل) الذي يسبح في الفضاء البعيد خارج نطاق المجموعة الشَّمسيَّة. هذا الاكتشاف يتمثَّل في كوكب جديدٍ لم يسبق أن اكتشفه الإنسان، أو عرف عنه شيئًا. يبلغ عمر ذلك الكوكب وفق حسابات العلماء ثلاثة عشر مليون سنة، ويبعد عن كوكب الأرض ما مقداره ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة ضوئيَّة.

جلستُ أتابع تفاصيل الكشف العلمي الجديد على قناة ديسكفري التّليفزيونيَّة المتخصِّصة، وأنا أفكِّر في وجودنا نحن البَشَر على ظَهر هذا الكوكب...

رحلتنا القصيرة...

بدايتها ونهايتها...

انتقالنا إلى الجانب الآخرمن رحلة الوجود والخلود...

إلى أين نمضـي...؟

كيف يتمّ الانتقال...؟

كيف نرى هذا العالم المادِّي حين ننتقل إلى هناك...؟

ثمَّ تلك الأكوان والعوالم والمجرَّات والأقمار والشّموس التي يزدحم بها الفضاء السَّحيق...!!!!!!!!!

مملكة جبَّارة لا يمكن أن يحيط بكنه أسرارها العقل الإنسانيّ القاصر محدود القدرات.

التَّأمُّل في فلسفة الكون تنتهي دومًا عند شاطئ الإيمان... فهذه العوالم الواسعة واللامتناهية، والتي مازال أمام الإنسان آلاف السِّنين حتَّى يكتشفَ أقلَّ القليل منها، لابدَّ لها جميعًا من خالق وصانع ومدبِّر قامَ بصنعها في البداية ويباشر ما يحدث فيها صباح مساء.

أمَّا الإنسان، والأرض، هذا الكوكب الذي يؤويه – فإنَّهما معًا جزءٌ بالغ الضَّآلة من منظومة كبرى تحتوي أسرار الوجود.

فهل من حقِّنا – بني البشر – أن نطمعَ، أو نغترَّ، أو نتعالَى، ونحن ندري أنَّ أعمارَنا قصيرة، وأنَّ دنيانا فانية، وأنَّ أقدارَنَا ليستْ من صنعنا. سبحان خالق كل شيءٍ.

obeikandl.com

الرِّجال والتَّاريخ...

هل يصنع الرِّجالُ التَّاريخَ؟؟؟

أم أنَّ التَّاريخَ هو الذي يصنع أبطاله؟؟؟

أم أنَّ العلاقة بين البطل والتَّاريخ تدور في إطار من الجدليَّة (الدِّيالكتيكيَّة) التي تحدَّث عنها فيلسوف ألمانيا هيجل، والتي كانت أساسًا للنَّظريَّة الماركسيَّة التي شيَّد أركانها كارل ماركس فيما بعد.

وهل أبطال التَّاريخ هم نتاج لعوامل خارجيَّة تحكمها ظروف الزَّمان والمكان وعناصر الطَّبيعة، أم أنَّهم رجال موهوبون –اختارتهم الأقدار لأداء أدوار بذاتها تغيِّر تاريخ البَشَر ومسيرة البشريَّة؟

شاهدت لقاءً مع أحد رجالات عصر عبد النَّاصر بثَّته إحدى الفضائيَّات العربيَّة. الرجل هو عبد المجيد فريد، والدُّور هو أمين رئاسة الجمهوريَّة في عهد عبد النَّاصر. تحدَّثَ الرَّجل عن ذلك الزَّمن حين كانت المبادِئ فوق المصالح. تحدَّثَ عن الزَّعيم الذي كلَّفه بقراءة خمسة دساتير لخمسة نظم سياسيَّة مختلِفَة، وطالبَهُ بكتابةِ دِرَاسة مفصَّلة عن المقارنة بين المزايا والعيوب في كلٍّ واحدٍ منها، وذلك كأحد المتطلّبات الفكريَّة والثَّقافيَّة قبل أن يسندَ إليه تلك المسئوليَّة الخطيرة إلى جانبه.

تحدَّثَ أيضًا عن عطاء مصـر عبد النَّاصر لأمَّتها العربيَّة. وكيف ضحَّتْ مصر في سبيل الوحدة مع سوريا. وكيف رفضَ عبد النَّاصر إراقَة الدِّماء رغم أنَّ القرارَ كان قد تمَّ اتِّخاذه للقضاء على جريمة الانفصال بالقوَّة المسلَّحة، ثمَّ كيف ساندت مصـر ثورة تمّوز في العِرَاق، وكيف كان هو رسول عبد الناصر الذي بقي محبوسًا في مقرِّ وزارة الدِّفاع العِرَاقيَّة إلى جوار

عبد الكريم قاسم وعبد السَّلام عارِف لمدَّة أربعة أشهر متواصلة حتَّى تمَّ تأمين الثَّورة (التي ما أن تأمَّنت حتَّى انقلب بها قاسم على مصر وعلى عبد النَّاصر)...

تحدَّثَ عن كيف خاطرَ بحياته بتكليف من الزَّعيم – وترَكَ منصبه، ومركزه القيادي – ليدخلَ إلى سوريا متسلِّلًا حاملًا جوازَ سفرٍ بمهنة (مُدَرِّس)، وهو مَن هو أمين الرِّئاسة النَّاصريَّة.

تحدَّثَ عن كيف وقف عبد النَّاصر ومعه مصر إلى جانب ثورة اليمن، وثورة الجزائر... وغيرها الكثير...

الجميل أنَّ الرَّجل لم يزل حتَّى اليوم يُسَمِّي سوريا (الإقليم الشَّمالي) ومصر (الإقليم الجنوبي)...

وأظلُّ أتساءل: أين توارى هذا النّوع من الرِّجال... وهل يمكن أن يصيب العقم أمَّة بكاملها مازال أفرادها يتناسلون كلَّ يوم؟

obeikandl.com

عن الخيول وأحزانها...

نظرتُ مليًّا في عيني جواد عربي أصيل، أحتفظ بصورته التي كانت قد أعجبتني ذات يوم حين كنتُ أشاهِد أحدَ سباقات الخيل في القاهرة منذ عدَّة سنوات.

الجواد العربي برشاقته، وشعره المتهدِّل فوق عنقه الممشوق، وعيناه اللامعتان بالتَّحدِّي والإصرار والكبرياء، هذا الجواد لديه من المشاعر الرَّاقية مالا يتوافر لدى إنسان الحضارة المعاصرة.

فالجواد العربي يحزن ويكتئب حين يفقد صاحبه، أو حين يمرُّ صاحبه بظروف صعبة تنعكس على أسلوب تعامله معه وتدليله له، وافتقاده لقطعة السّكَّر التي يعني الكثير لدى الجواد العربي الذي يتسمرّ إلى جانب صاحبه إذا ما سقط من فوق ظهره.

تذكَّرتُ صورةَ الخيل العربيّ، وكلّ ما ترمز له، وأنا أتأمَّل ملامحَ صورة الجواد التي احتفظَ بها، مدفوعًا بمشاعر حزينة احتوتني وأنا أقرأ خبرًا عن الخيول العربيَّة السِّتَّة عشر التي كان يمتلكها الرَّئيس العراقي السَّابق "صدَّام حسين"، والتي نقلت من حيث عاشت وتدلَّلت، إلى مضمار للسِّباق حيث قضتْ أكثرَ من ثلاثة أشهر بين الحزن والغربة والاندهاش، إلى أن نقلت أخيرًا بمعرفة القوَّات الأمريكيَّة ومندوب لإحدى المؤسَّسات الدَّوليَّة إلى حيث يتم الاعتناء بها ورعايتها مجدَّدًا،

أنَّ أحزانَ الخيولِ على فراقها لعالمها ولرعاتها السَّابقون بدتْ واضحة على صحَّتها التي بدأتْ في الاعتلال، فكان على القوَّات الأمريكيَّة أن تبحثَ عن

الفريق السَّابق الذي كان يرعاها أيَّام صدَّام – حتى وجدته – أي وجدت فريق الرِّعاية الذي تعرفه الخيول، وافتقدته خلال الشّهور الثلاثة، ومن ثَمَّ أعيد الفريق ليرعى الخيول مجدَّدًا تحت إشراف الإدارة الأمريكيَّة.

لم يكن حال خيول العِرَاق ليختلفَ عن أحوال الأسود والنُّمور في حديقة حيوان بغداد، حيث أصيبت بحالة من الخوف والهلع نتيجة لموجات "الصَّدمة والرُّعب" التي كانت شعارًا للحرب البربرية الشرسة، والتي أصابت حيوانات الحديقة العِرَاقيَّة بالاكتئاب الذي تزامنَ مع الجوع، واختفاء الرِّعاية والرُّعاة... فبدا الأسد العراقي هو الآخر حزينًا مندهِشًا في انتظار أن تضحكَ بغداد من جديد.

فهل يحدث؟؟؟

obeikandl.com

ثَمَنُ الوَلاء...وَثَمَنُ الشَّجَاعَةِ

يبدو أنَّ الكثيرَ من الأسرار والصَّفقات والخفايا عن جريمة القرن التي ارتكبت بحقِّ العِرَاق – ستتكشَّف مع الزَّمن، وستتولَّى الأيَّامُ وصراعاتُ السِّياسةِ إزالةَ الأختامِ وتحطيمَ الأقفال التي يحاول المجرمُونَ إخفاءَ جرمِهم خلفَ حواجزها السَّميكة.

نذكرُ هذه المقدِّمة بعد أنْ صَدَرَ وَظَهَرَ في الأسواق كِتَابٌ هو الأخطرُ من نوعهِ لمؤلِّفِهِ وزير الماليَّة السَّابق في حكومة الرَّئيس جورج بوش وهو السَّيِّد بول أونيل. الكِتَاب هو ثَمَن الوَلاء **The Price of Loyalty** يتحدَّثُ عن حقيقة نوايا الرَّئيس الأمريكيِّ ونائبه ديك شيني منذ اليوم الأوَّل لدخولهما البيت الأبيض، ويؤكِّد على حقيقة أنَّ القَرارَ بغزوِ العِرَاق كَانَ مُتَّخَذًا منذ وقت طويل قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر. وأنَّ أكثرَ من ثمانية أشهر قبل أحداث سبتمبر شهدتْ تعليمات صريحة له بشأن جريمة الحرب والغزو، ضمنها مذكِّرة داخليَّة **Internal Memo** تتضمَّن وضع الخطوط العريضة لـ''خطَّة عِرَاق ما بعد صدَّام'' أو **" Plan for Post Saddam Iraq"**.

ما ورد في كتاب بول أونيل، عادَ وأكَّدَهُ في مقابلة له مع قناة الـ **C B S** ضمن برنامج **60 minutes** حيث كان من بين ما وَرَدَ على لسانه ''أنَّإ زاحة الرَّئيس العِرَاقي صدَّام حسين من السُّلْطَة كانت تمثِّل للرَّئيس بوش أولويَّة مطْلَقَة **Top Priority** منذ أوَّل اجتماع لمجلس الأمن القوميّ بعد أيَّام قلائل من حفل تنصيبه رئيسًا، وأيضًا قبل ثمانية شهور من وقوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١...

ويؤكِّد السَّيِّد أونيل والذي تَمَّتْ إقالته من منصبه بعد ثلاثة وعشـرين شهرًا عاصفة قضاها ضمن فريق الإدارة الجمهوري المكوِّن لمجلس الوزراء تحت قيادة الرَّئيس جورج بوش، يؤكِّد أنَّ المناقشات بشأن العِرَاق استمرَّتْ في الاجتماع التَّالي لمجلس الأمن القوميّ (الذي كان هو الاجتماع رقم اثنين) للرَّئيس المنتخَب مع طاقم إدارته لجديد، وأنَّه تسلَّمَ المذكِّرة السَّابق الإشارة إليها والتي تطلب منه باعتباره (وزير الماليَّة) الإعداد "لعِرَاق ما بعد صدَّام حسين". ومن بين ما أكَّد عليه السَّيِّد أونيل سواء في مقابلته مع الإس بي إس، أومع مجلَّة **Time** أنَّ قضيَّةَأسلحة الدَّمار الشَّامل العِرَاقيَّة، هي أكذوبة لا أساس لها.

إنَّ وزيرَ الماليَّة السَّابق الجمهوري، بول أونيل هو رجلٌ معروفٌ عنه صراحته المطْلَقَة، وجرأتهُ في التَّعامل مع القضايا التي يرى البعضُ أنَّ الحديثَ فيها شائك أو ممنوع. من هنا تأتي أهميَّة ما صَرَّحَ به، وأيضًا ما وَرَدَ في كتابه، فلم يسبق أنْ خَرَجَ واحدٌ من المطْبَخ السِّياسي للبيت الأبيض ليتحدَّثَ عن قضيَّة الحرب على العراق ودوافعها ومبرِّرَاتها بهذه الجرأة أو المصداقيَّة التي تحدَّثَ بها أونيل. كما أنَّ كتابَهُ بِهِ من التَّفاصيل الموثَّقة ما لم يسبق أن احتواه كتابٌ آخر لدرجة أنَّ مجموعَ الوثائق – التي قام بتزويده بها محرِّر كتابِهِ ثرون سيسكند **Sron Siskind** – بلغ عددها تسعة عشـر ألف وثيقة (١٩٠٠٠ وثيقة).

هكذا أعلنها أونيل صراحة: أنَّ جورج بوش دخلَ إلى البيت الأبيض ولديه مسبقًا نيَّة غزو العِرَاق وتغيير نظام الحكم فيه، وكل ما كان يعوزه هو البحث عن الطَّريقة والكيفيَّة والمبرِّرات.

ومع بداية الأسبوع بدأت تصريحات وزير الماليَّة السَّابق تحدث تفاعلاتها وتأثيراتها وردود الأفعال تجاهها. فالرَّئيس بوش نفسه وجد أنَّ فرصة الادِّعاء بخلاف الحقيقة مكتوب لها الفشل، وبالتَّالي جَاءَ تعقيبه على حديث أونيل وما ورد في كتابه، وكأنَّه بالضَّبط يؤكِّد صِدْقَ الرِّواية، وكان ضمن ما قاله بالحرف الواحد "إنَّنا مثل الإدارة السَّابقة، كان هدفنا تغيير النِّظام"... إذًا القضيَّة لم تكن أسلحة الدَّمار الشَّامل، وأيضًا لم تكن (تحرير) العِرَاق، وتصدير الدِّيمقراطيَّة إلى شَعْبِهِ البَائِس.

في أعقاب تصريحات الرَّئيس بوش بهذا الشَّأن جَاءَ الدّور على وزارة الماليَّة ذاتها، والتي كان أونيل على رأسها حتَّى عام ٢٠٠٢ حين صَدَرَ أمر إقالته من منصبه، فأعْلَنَ المتحدِّث الرَّسمي باسم الوزارة **Rob Nichols** أنَّ الوزارة طلبت من مكتب المفتِّش العام البَدْءَ في التَّحريات بشأن قيام وزير سابق بإذاعة مضمون ونص مراسلات داخليَّة صادرة عن مجلس الوزراء مصنَّفة تحت بند "سرّيَّة". ومازالت القضيَّة تتفاعَل ومن المؤكَّد أنَّ الوزيرَ السَّابق سوف يدفع ثَمَنَ صراحته وشجاعته وصِدْق ما تحدَّثَ بِهِ.

ما هو ذلك الثَّمَن، وكيف ستتم معاقبة أونيل بعد أن عوقب بطرده من منصبه في مجلس الوزراء؟

يمكن متابعة تطورات القضية لمن يشاء.

المثير في هذه القضية هو أنَّها أكَّدت بما لا يدع مجالًا للشَّكِّ صحة ما ذَهَب إليه كافّة المحلِّلين الشُّرفاء الذين بذلوا جهودهم من أجل منع الحرب على العِرَاق.

فبينما كان المعارضون لتلك الحرب ينشرون آراءهم، ويدافعون عن موقفهم، ويدينون الأشرار الذين يخطِّطون لحرب بلا قضيَّة، كان الآخرون

يسخرون، وينتقدون هؤلاء الذين يؤمنون بنظريَّة المؤامرة، وبناء على أسس نظريَّة، ويتَّهمون الرَّئيس بوش وإدارته بوجود أجندة سريَّة خاصَّة بهم يخفونها عن العامَّة، ولا يتحدَّثون علنًا إلَّا عن كلِّ مايقود في النِّهايَةِ إلى تحقيقهم لأهدافهم ونواياهم غير المعلَنَة. فأيّ الفريقين كان على حقٍّ؟؟؟

الفريق الذي أيَّدَ الحربَ مخدوعا بالأكاذيب التي روَّجت لها إدارة الرَّئيس بوش (ومعه توني بلير الذي وقفَ أمامَ مجلس العموم يعلن أنَّ صدَّام حسين بإمكانه إطلاق أسلحة دمار شامل بيولوجيَّة وكيماويَّة خلال خمس وأربعين دقيقة)؟؟؟

أم الفريق الذي قَرَأ الأحداث قراءتها الصَّحيحة منذ البداية وأعادَ قصَّة التَّحرُّش بالعراق وغزوه واحتلاله إلى أسسها النَّظريَّة كما وردت في الأوراق الاستراتيجيَّة التي أعدَّها مستشارو اليمين المحافظ في البنتاجون والبيت الأبيض والخارجيَّة، هؤلاء الذين يحاولون تنفيذ مشروعهم منذ رئاسة الرَّئيس ريجان، ووجدوا فرصتهم السَّانحة في شخص وشخصيَّة الرَّئيس جورج دبليو بوش؟؟؟

أخيرًا، وفي ظلّ هذه الأكاذيب التي تكشَّفت مع مرور الأيَّام، يكون السُّؤال عمَّا إذا كان من الواجب علينا أن نهنِّئ العراقيين على ما هم فيه من سعادة صاروا يتمرَّغون في نعيمها؟؟؟

أم نأسى لبلدٍ حرٍّ مستقلٍّ ذي سيادة، صار مستعمرة بائسة لا حولَ لها ولا قوَّة، يحتلّها الجوعى والمرتزقة من جنود بلدان لم يكن يحقّ لأيّ منهم تحت أيّ سند من شرعيَّة أو قانون أن يطأ بقدمه الأرض العراقيَّة إلَّا عاملًا أجيرًا، أو ضيفًا على الشَّعب أو الحكومة؟؟؟

وهل التقت أهداف ومصالح المتّهمين الهاربين من العدالة مع مصالح وأهداف الرَّئيس جورج بوش ورجاله، فاتَّفق الطَّرفان من وراء ظهور العالم على تدمير العراق، وهدم أسس القانون الدّولي، ومبادئ الشَّـرعيَّة الدَّوليَّة، وارتكاب هذا العدوان السَّافر وغير المبرَّر؟

أم أنَّ إزاحة "صدَّام حسين" ونظامه واحتلال العِرَاق بواسطة الجيوش الأمريكيَّة والبريطانيَّة وجيوش المرتزقة من الدّول التَّابعة، كلّ هذا سيكون إيذانًا بفجر جديد يؤذن بالدِّيمقراطيَّة والحريَّة والرَّخاء لشعب العراق ولشعوب المنطقة العربيَّة؟

مجرَّد تساؤلات؟!!

obeikandl.com

لماذا ينتحر الإنسان...

قرأت مؤخَّرًا خبر انتحار شاب ريفي من أبناء الدِّلتا...

الشَّاب وكما نُشِرَ في أعقاب حادِث إلقائه نفسه في النِّيل في مدينة القاهرة، هو واحد من صفوة جيله من حيث تفوّقه العلميّ، ومؤهّلاته الدِّراسيَّة، وثقافته، وخلفيَّته الإيمانية التي تشبَّعَ بها من خلال نشأته في إحدى القرى الوادعة على ضفاف النِّيل بين والدين من بسطاء الرِّيف المصري الطَّيّب.

إذًا ما الذي يدفع شابًّا من هذا النّوع إلى التَّخلُّص من حياته بهذه الطَّريقة؟؟؟

لم يترك الشَّاب رسالة يشرح فيها معاناته التي سبقت المأساة وأدَّت إليها. كما أنَّ حياته لم تعرف يومًا اختلالًا أو مرضًا نفسيًّا أو عقليًّا تنطلق على أساسه تفسيرات المحقِّقين وأجهزة الأمن.

كلّ ما تمَّ التَّوصُّل إليه من خلال تحليل مسيرة حياته طوال الفترة السَّابقة على حادث الانتحار هو استنتاج أنَّ هذا الشَّاب أصيب بحالة اكتئاب وخيبة أمل في بلده وأهله والنِّظام السِّياسي والاقتصادي والاجتماعي الظَّالم الذي يعيش في ظلِّه.

فهؤلاء جميعًا، البلد والمجتمع، والنِّظام القائم، يمثِّلون قوَّة لم يستطع الشَّاب المواطن تغييرها، وبالتَّالي لم يجد سوى ذاته يحملها ويرحل بها من هذا العالم الظَّالم.

لقد ثبتَ من خلال التَّحقيقات أنَّ هذا الشَّاب تقدَّم للحصول على وظيفة بوزارة الخارجيَّة على ما أذكر، كان يستحقّها بجدارة بحكم دراسته وبحكم تفوُّقه وتميُّزه على أقرانه وبحكم نجاحه في كافَّة الاختبارات العلميَّة والثَّقافيَّة

والخلقيَّة المؤهِّلة للحصول عليها. ولكن حين جاءت لحظة الاختيار منحت الوظيفة لسواه ممَّن هم أقل منه قدرة وكفاءة وعلمًا. وحين حاول التَّعرُّف على السَّبَب، تبيَّن له أن النِّظَامَ السِّياسيَّ والإداريَّ والاجتماعيَّ في بلده يرى في تواضع ظروف أسرته الاجتماعيَّة سببًا كافيًا؛ لكي لا يحصل على حقِّه في العَمَل الذي يستحقّه. بمعنى آخر، لم يحصل على العمل الذي هو كفء له؛ لأنَّه ينتمي إلى أسرة فقيرة؟

حين واجهَ نفسه بالحقيقة المرَّة، لم يتحمَّل قسوة الواقع، فاختارَ الرَّحيلَ بهذه الطَّريقة الحزينة والمفجِعَة ليتركَ علامات الاستفهام تحرق كلَّ شيءٍ.

هل وصلت مصر إلى هذه الدَّرَجَةِ من التَّمييز الطَّبقيّ والاجتماعيّ؟...

وأينَ يذهبُ العباقرةُ من أبناء الفقراء؟؟؟

هذا الموضوع كان قد نشر في عام ٢٠٠٣ بالجريدة ..ليظل السؤال قائما..

هل تغير شيء بعد كل هذه السنين؟؟؟

وهل حصل الفقراء على حقوقهم بعد ثورتين ضد منظومة السياسة والثقافة والثروة التي ظلمتهم على مدى التاريخ...؟؟؟...

وما المبدأ أو المرجع الذي يستند إليه هؤلاء الذين يزرعون المرارة في قلوب الأجيال الصَّاعدة.

قضيَّة هذا الشَّاب هي قضيَّة الشَّباب العربيّ كلِّه في هذا الزَّمن. حيث البطالة تتضاعف أرقامها، وحيث الفساد والمحسوبيَّة والعلاقات الاجتماعيَّة والماليَّة والمصلحيَّة لها اليد العليا في تقرير مصير المواطن. وحيث لا أحد يستطيع تغيير شيء سوى بالانتحار طالما أنه حتى الثورة لا تستطيع أن تغير الواقع.

عن السُّقوط وتوابعه : بين التَّشفِّي والمرَارة

ستتوقَّف مراكب التَّاريخ طويلًا أمام الحقبة الرَّاهنة من تاريخ العالم. وسيكتب المؤرِّخون كثيرًا عن العَرَبِ وحالهم وزمن تردِّيهم وضياعهم بين الأمم الفقيرة منها والغنيَّة، ولا نعتقد أنَّ أحدًا من عشرات الملايين من النَّاطقين بالضَّاد، أو المتشدِّقين بها سوف يستحقّ كلمة إنصاف، خاصَّة بعد أن ينقشع غبار المعارك، وتدور عجلة الأيَّام، ويأتي زمن غير الزَّمن، وظروف غير الظّروف، وعرب غير العرب. يومها سيتوقَّف رواة التَّاريخ مطوّلًا أمام ظاهرتين تترجمان واقع الحالة العربيَّة في زمن التَّردِّي.

الظَّاهرة الأولى هي تلك التي تُعَبِّر عنها حِفْنَة من صنائع القوى الكبرى امتلكوا أدوات النُّفوذ، وقوَّة التَّأثير، وملكات القدرة على صياغة وتشكيل فكر ورؤية الملايين من غوغاء العَرَب المغلوبين على أمرهم.

تلك الحفنة من العملاء وأتباعهم يرقصون فرحًا وانتشاءً منذ سقوط بغداد، وتضاعف انتشاءهم، وتأكّد لهم امتلاك ناصية الزَّمن ومسيرة الأحداث منذ اعتقال "صدَّام حسين"، وتوظيف آلة الإعلام الجهنَّميَّة بهدف نشر صورته المهانة، ومظهره الذَّليل على مسمع ومشهد من العالم بأسره.

فهؤلاء الأغبياء الذين كَتَبَ أحدُهم منتشيًا مقالًا بعنوان "صدام: الحفرة والمسدّس والدّولار" صوَّر له غباؤه أنَّ الكتابةَ عن رجلٍ صارَ بلا حول ولا قوَّة، بهذه الطَّريقة المتشفِّيَة سوف تمنحه مزيدًا من الشُّهرة أو مزيدًا من الدّولارات. (كان كاتب هذا الموضوع المثير وقتها هو الصَّحفي المصري رضا هلال بجريدة الأهرام، وقد اختفى بعدها في ظروف غامضة ولم يُعْثَر له على أثر).

إنَّ هذا السُّلوك من جانب كاتب مثل هذا إنْ دلَّ على شيءٍ فإنَّما يدلّ على الجهل، والفشل في قراءة دلالات الأحداث، وبالتَّالي القدرة على تفسير مجرياتها والتَّنبُّؤ بنتائجها.

فـ"صدَّام حسين" ونظامه السِّياسي سقطا معًا يوم سقوط بغداد، ولم يكن لأيّ عاقل أن يتصوَّر أن تسقط بغداد تحت جنازير الدَّبَّابات الغازية وينجو صدَّام أو نظام حكمه أو الفكر الذي اعتنقه وقادَهُ إلى ما انتهى إليه، بغضِّ النَّظَرِ عن مَدَى صواب أو خطأ ذلك الفِكْر.

فهؤلاء المتشفّون الذين ينفثون سمومهم على مواقع الإنترنت، وتملأ مقالاتهم وصورهم صحف ومجلّات العرب، يبدون وكأنَّهم لم يتأكَّدوا من هزيمة (أُمَّتِهِم) إلَّا بعد اعتقال صدَّام. ولو كان لدى أيٍّ من هؤلاء أدنى ذرَّة من الحياء لتوقَّفَ قلمه عن الكتابة، على الأقلِّ؛ اقتناعًا وثقةً بأنَّ ما يريده ويحلم به يتمّ تحقيقه على أرض الواقع مع تتابُع الأيَّام وتوالي الأحداث. بمعنى آخر، فإنَّ سقوطَ بغداد، وبصرف النَّظر عن نتائجه القريبة أو البعيدة، وسواء جاء للعرب بلبن الدِّيموقراطيَّة وعسلها أو بمزيد من المهانة والإذلال – ذلك السُّقوط المدوِّي تتضاءل إلى جانبه كافّة توابعه التي هي بمثابة النَّتيجة الطَّبيعيَّة للسُّقوط الكبير- وهو ما يجعل من النَّشوة أو الشَّماتة التي ينفث ريحها الخبيثة جوقة التَّابعين صباحًا مساءً، هي العار الذي لن يستطيعوا معه رفع رُءُوسهم يومًا إلَّا تسبيحًا وحمدًا لسادتهم الذين يعرفونهم والذين لا يعرفونهم، وهؤلاء سيلعنهم التَّاريخ يومَ تُعاد كتابة صفحاته ويتوارى إلى غير رجعة المزيّفون والكاذبون، وباعة الضَّمائر والأوطان.

الظَّاهرة الثَّانية التي ارتبطت باعتقال صدَّام، وعمليّة الإخراج التّليفزيوني والدّعائي الهوليوودية التي رافقتها، هي تلك المتمثِّلة في حالة الانكسار

والاقتراب من شاطئ اليأس التي يُعَبِّرُ عنها واقع الشَّارع العربي، خاصَّة غالبيّته الصَّامتة، والتي لا تبوح بعذاباتها عبر شاشات الفضائيَّات أو صفحات الصّحف. فهؤلاء بدورهم نسوا أو تناسوا الحقيقة الكبرى وما تمثِّله في تاريخهم المعاصر، فما حَدَثَ لصدَّام هو استكمال فقط لإتمام عمليَّة السُّقوط التي حَدَثَتْ في العاشر من أبريل (نيسان) – وبالتَّالي – فلهؤلاء نقول... نعم... إنَّ التَّعمُّد في عمليَّة الإخراج المسرحي والدّعائي لحادث القبض على "صدَّام حسين" – لا تخفى دلالاته – وبحيث جاء الهدف منه واضحًا لكلِّ مَن له عين ليرى أو أذن ليسمع. وجاءت تلك العمليَّة تعبيرًا عن رغبة أطرافها في إهانة العرب، وتحقيرهم أمام أنفسهم، وأمام العالم، من خلال تعريض أحد قادتهم لهذا الكمِّ من الإهانة والإذلال. وقد نَسى هؤلاء المخرجون وأعوانهم أنَّ "صدَّام حسين" لم يكن زعيمًا يمثِّل العَرَب ولو كان كذلك لما ارتكبَ جرائمه في حقِّ إخوته وجيرانه ورفاقه الحزبيين. كان صدَّام ديكتاتورًا عشائريًّا قبليًّا– هذه حقيقة – ولكن ماذا نفعل وقد فرضته علينا الأحداث، والسِّياسة الأمريكيَّة؛ ليأتي في لحظة الذُّلِّ والمهانة ويكون رمزًا للعرب، أو زعيمًا أو قائدًا.

لسنا هنا في معرض التَّبرُّؤ من "صدَّام حسين"، أو أنَّه عورة نخجل منها، وإنَّما نحن نناقش حقائق الواقع كما هي بمرارتها وقسوتها.

فالرَّجل اجتهد وأخطأ، وكانت خطيئته أنَّه لم يستمع إلَّا إلى صدى صوته، والمنافقين المرتعشين من حوله ممن تمتلئ بهم مكاتب وقصور الحكَّام العَرَب في كافَّة حواضرهم. وفي النِّهاية ها هو الشَّارع العربي بأسره، حتَّى أولئك الذين آذاهم صدَّام ونظام حكمه، يشعرون بالمرارة والأسى والدُّونيَّة،

ويتمنُّون لو لم يحدث ما حدث، هذه الظَّاهرة هي أيضًا من توابع السُّقوط الكبير الذي لا يجب أن يقودَنا إلى محطَّة اليأس وفقدان الأمل.

الأمم العظيمة تتَّخذ من لحظات انكسارها بدايات جديدة.

فألمانيا – الشَّعب والأمَّة – لم ينقص من قدرها أن هُزِمَ حزب النَّازي، أو انتحرَ أدولف هتلر، أو حوكم جوبلز أو إيخمان أو غيرهما من القادة الألمان الذين تعرَّضوا للمهانة وهم يقفون في أقفاص الاتِّهام أثناء محاكمات نورمبرج.

واليابان الامبراطوريَّة لم ينتهِ تاريخها بتوقيع امبراطورها على صكِّ الاستسلام على ظهر بارجة أمريكيَّة في عرض المحيط.

الأمم العظيمة تنهض من كبواتها، وتستفيد من سقطاتها، وتحوِّل انكساراتها إلى انتصارات. ونعتقد أنَّ أمَّة العرب بتاريخها وحضارتها وتراثها وثرواتها، ليست أقلَّ من الأمَّةِ الألمانيَّة، أو الأمَّة اليابانيَّة.

فقطار التَّاريخ لا يتوقَّف عن المضي عبر محطَّاته التي قد تطول المسافات بينها أو تقصر، عقودًا أو قرونًا، ولكنَّ الأمم الحيَّة لا تموت.

من هنا فإنَّ الشَّارعَ العربيَّ لا ينبغي أن يبالغَ في جلدِ الذَّات، أو الوقوف على أطلال الماضي والبكاء على اللبن المسكوب الذي لن يعودَ إلى إنائه أبدًا. المطلوب هو التَّهيُّؤ والاستعداد لانطلاقة جديدة، وغدٍ جديدٍ، وصحوة قوميَّة على أسس صحيحة.

مطلوب من العرب في زمنهم الصَّعب ألَّا يسمحوا لمشاعر القنوط أن تستولي عليهم، فتقتل لدى أجيالهم الرَّغبة والاستعداد للعمل والتَّفوُّق والإبداع وصنع الغد الأفضل بنديَّة تتفهَّم العالم ومتغيّراته، وتتفاعَل معه وِفْقَ

قوانينه، وتوظف إيجابيَّاته في سبيل خدمة أهداف التَّحرُّر والدِّيمقراطيَّة والرَّخاء والوحدَة.

المقال الافتتاحي لجريدة العالم العربي
٢٣ – ١٢ – ٢٠٠٣م.

obeikandl.com

الثّور، والرَّايات الحُمر... تـأمُّلات في المأزق الأمريكي

حين أحدِّق بإمعان في عيني أحد الجنود الأمريكيين الذين تبثّ أجهزة الإعلام صورَهم من العِرَاق على مدى ساعات الليل والنَّهار، وهم رابضون فوق دبَّاباتهم، مرتدين خوذاتهم الثَّقيلة وشدّاتهم العسكريَّة الكاملة، أرى عيونًا زائغة يملؤها الخوف والغَضَب والشُّعور بالاغتراب، وهي تدور في كلِّ الاتّجاهات تبحث في رعب وهلع عن عدو كامن في ركن هنا أو في زقاق هناك، حيث التَّعامُل لحظتها لا يتمّ إلَّا من خلال الأصابع المثبَّتة حول زناد البندقيَّة ولسان الحال يقول: "إمَّا أن تقتل أو تصير قتيلًا".

أرى صور هؤلاء التُّعساء وأتذكَّر ذلك القرار السِّياسي الأرعن الذي بمقتضاه قامَ الجيش الأمريكي بغزو العراق تحت دعاوى وشعارات أثبتت تطوُّرات الأحداث أنَّ جميعها كانت كاذِبَة ولا أساسَ لها، وأنَّ المحرِّكَ والباعث لتلك الحرب لم يكن سوى الكراهية والتَّعصُّب الأيديولوجي الأحمق اللذين لم يعد دورهما في إشعال الفتنة على أرض العراق خافيًا على أحد في الشَّرق أو في الغَرْب، إضافة إلى المصالح الماديَّة الأنانيَّة، والجشع الرَّأسمالي الإمبريالي المقيت.

ولسوء حظِّ العالم في هذه المرحلة من تاريخه أن وُجِدَت في واشنطن إدارة مبتلاه بالجهل، والتَّعصُّب، وقصـر النَّظَر، لم تعر بالًا لنداءات العقلاء، ومحاولات أهل العلم، وخبراء السِّياسة والتَّاريخ والاستراتيجيَّة، الذين حاولوا جميعهم منع هذه الحرب قبل أن تبدأ.

فكان ما كان. وأعلنت واشنطن الحربَ على بغداد، وقامت بالزَّحْفِ (غير المقدَّس) شرقًا لتسقط نظام الحكم، وتطارد رموزه وقادته، ثمَّ لتعلنَ للعالم أنَّها ـ أي واشنطن ـ صارت قوَّة احتلال في العِرَاق.

وأنَّها جاءت إلى هذا البلد لتدمِّره ثمَّ تقوم باحتلاله من أجل (نشر مبادئ الحريَّة والدِّيمقراطيَّة) ـ هكذا ـ لا خجل ولا حياء؛ لذا كان أن تغيَّرت الأهداف من البحث عن أسلحة الدّمار الشَّامل وإزالتها) ـ إلى هدف جديد هو الدِّيمقراطيَّة والحريَّة، ثمَّ أخيرًا تطوّر الهدف من تلك الحرب ليصبحَ (محاربة ما سُمِّيَ بالإرهاب) وهو الهدف الذي في إطاره يردِّد المسئولون في إدارة الرَّئيس بوش أنَّ مبتغاهم من تلك الحرب هو نقل المعركة إلى أرض "العدو" أي إلى قلب العالم العربي والإسلاميّ، وكانت تلك هي أكبر الخطايا في قصَّة هذه المعركة التي بدأتها واشنطن، والتي لا يدري أحدٌ مَن ستكون له الكلمة الفاصلة فيما يتعلَّق بإنهائها.

فالخروج من مستنقع العِرَاق بالنِّسبة للسِّياسة الأمريكيَّة لن يكونَ سَهْلًا مثلما كان الدُّخول إليه. ومعادلات القوَّة في حسم عمليَّة الخروج لن يكون لها دور ذو تأثير مثلما كان دورها في تسهيل رحلة الدُّخول. فواشنطن، وكما تؤكِّد تطوَّرت المعارك في العِرَاق (وهي المعارِك التي لم تتوقَّف منذ شهر مارس ٢٠٠٣) ذهبت بقدميها إلى جحر الأفاعي.

وكان الجهل بالسِّياسة والتَّاريخ هو الذي قادَ إلى هذه الفضيحة. فمقارنة صنَّاع القرار في مؤسَّسة الرِّئاسة الأمريكيَّة بين نظام هتلر ونظام "صدَّام حسين"، وكذلك مقارنة ألمانيا النَّازيَّة بعِرَاق البعث، ثمَّ أخيرًا مقارنة موقف الشَّعْب الألماني ومعه شعوب أوروبا من هتلر والنَّازيَّة، مع موقف الشَّعب العِرَاقي ومعه شعوب الدّول العربيَّة من "صدّام حسين" وحزب البَعْث،

جميعها كانت مقارنات خاطئة وبالتَّالي كانت النَّتيجة هي المأزق الذي انتهى إليه الموقف الأمريكيّ الحالي، والذي يعتبر من أهمِّ مؤشِّراته تلك المحاولات المزرية للاستجداء والتَّحريض التي يبذلها مسئولو إدارة الرَّئيس بوش في كافَّة أركان الأرض بحثًا عن مساعدة أو عون ماليٍّ أو عسكريّ دون جدوى، ودون مردود سوى نظرات الشَّماتة والتَّشفِّي والإشفاق من الحلفاء والأصدقاء قبل الأعداء.

ومع الفشل الذي واجهته محاولات واشنطن لاستعداء العالم ضدّ العِرَاق وضدّ العَرَب وضدّ المسلمين جاء البحث عن طريقٍ للخروج، وهو البحث الذي يصطدم بعقبات كأداء لا يدري أحدٌ كيف يمكن مواجهتها أو التَّغلُّب على مصاعبها.

ففي ضوء المواجهات الدَّامية بين قوَّات المقاومة الوطنيَّة العراقيَّة وقوَّات الاحتلال الأمريكي لم يكن أمام إدارة الرَّئيس جورج بوش سوى البحث والمفاضلة بين خيارات جميعها لن تخدمَ مصالح واشنطن في العراق، أو في المنطقة العربيَّة.

لقد ثبت لمنظِّري البنتاجون أنَّ مجموعةَ (العملاء) الذين تمَّ زرعهم في بغداد ليحكموا العراق في إطار ما سُمِّيَ (مجلس الحكم) جميعهم مرفوضون شعبيًّا، ولا يثق فيهم أحدٌ من أفراد الشَّعب العراقيّ، إضافة إلى فشلهم حتَّى في أداء الدّور الذي كان مأمولًا منهم من جانب رامسفيلد ومستشاريه (باعتبارهم يمثِّلون معارضة وطنيَّة تُعَبِّر عن غالبيَّة الشَّعب العِراقي) ـ حسب الادِّعاءات التي تشدَّقَ هؤلاء بها ونجحوا في تسويقها تمهيدًا لقرار الغزو والاحتلال. من هنا جاء قرار نقل السُّلطة (المدنيَّة) إلى العراقيين، وهو القرار الذي لم يقتنع بجدواه أحد؛ حيث عقليَّة (الاحتلال العسكري

واستمراره) هي العقليَّة التي صاغتْ ذلك القرارَ الهادِفَ أساسًا إلى إيجاد طريق للخروج ولو جزئيًّا من المستنقع وتبعات الإصرار على الخوض في أوحاله. وانطلاقًا من فرضيَّة (مثاليَّة) مؤدَّاها قبول الإدارة الأمريكيَّة بالتَّحقيق الفعلي على أرض الواقع لمبدأ الحلِّ الدِّيمقراطيّ للمعضلة العِرَاقيَّة، فإنَّ السُّؤالَ الذي يفرضه حال كهذا هو مدى استعداد واشنطن للتَّسليم والقبول بنتائج الخيار الدِّيمقراطي لشعب العراق. وفي هذه الحالة يكون السُّؤال عن ماذا ربحت واشنطن من مغامرتها العسكريَّة التي كلَّفتها مئات القتلى وعشرات المليارات على أمَل أن تستردَّ كلَّ هذا، مضافًا إليه الأرباح والفوائد من خلال سيطرتها على موارد الثَّروة العِرَاقيَّة؟

إنَّ القوى السِّياسيَّة الفاعلة في العراق تتوزَّع أساسًا بين ثلاث تيَّارات، كلّ منها له مصالحه وأيديولوجيَّته وعلاقاته مع قوى سياسيَّة إقليميَّة ودوليَّة لا تدور ـ جميعها ـ في الفلك الأمريكيّ.

فباستثناء (الأكراد) باعتبارهم يمثِّلون حالة خاصَّة، وكانوا يتمتَّعون بدرجة من الحكم الذَّاتي الإقليمي في ظلِّ نظام الحكم السَّابق في العِرَاق يتألَّف المشهد السِّياسي العراقي من الأطراف الفاعِلَة الأساسيَّة التَّالية:

١- الشِّيعة: كقوَّة سياسيَّة دينيَّة ترتبط عاطفيًّا وعقائديًّا بإيران ونظام الحكم القائم فيها.

٢- القوى القوميَّة: وهؤلاء يأتي في مقدِّمتهم البعثيُّون، أي أعضاء حزب البعث العربي الاشتراكي الذين يمثِّلون أقوى تيَّار سياسي في العِرَاق (بغضِّ النَّظَر عن كافَّة الادِّعاءات التي يهلِّل لها الإعلام الأمريكي)؛ ذلك أنَّ حزب البعث استطاعَ أن يسيطرَ على الحكم لمدَّة تقارِب الأربعين عامًا وهي فترة أتاحت لأيديولوجيَّة وفكر الحزب الفرصة الكافية للانتشار والتَّجذُّر

بين طبقات عديدة من أبناء العِرَاق سواء بدافع المصلحة أو بدافع القناعة، يُضَاف إلى هؤلاء القِوَى القوميَّة الأخرى التي فَرَضَ الاحتلال عليها أن تتحالَف مع حزب البَعْث رغم الخلافات القديمة.

٣- المسلمون السُّنَّة: وهؤلاء يتوزَّعون بين الولاء لحزب البعث وبين الكراهية له، وإن كان عنف وقسوة الاحتلال في تعامله مع ما يُسَمِّيه (المثلَّث السُّنِّي) أدَّيا إلى تعاطُف بدرجات متفاوِتة بين (الإسلام السِّياسي السُّنِّي) وبين عناصر المقاوَمة العِرَاقيَّة والتي يُعْتَبَر حزب البعث الفصيلَ القائدَ والمنظِّم لعمليَّاتها.

تأتي أخيرًا الأقليَّات الدِّينيَّة الأخرى، وهي أقليَّات لا تتعدَّى ٤٪ من تعداد العِرَاق تتوزَّع أساسًا بين الكلدان والآشوريين، وهؤلاء يُعْتَبَر تأثيرهم السِّياسي محدودًا إلى حدٍّ كبيرٍ، خاصَّة فيما يتعلَّق بمستقبل العِرَاق وفقًا للخيار الدِّيمقراطي القائم على (حريّة تذكرة الانتخاب).

الخيارات ـ إذًا ـ أمام صانع القرار الأمريكي فيما يتعلَّق بمحاولة الخروج من العِرَاق محدودة، وجميعها لا تتَّفق والمصالح الاستراتيجيَّة لليمين الرَّأسمالي الذي خاضَ الحربَ وقامَ بالتَّنظير لها، أو بالتَّبشير بنتائجها.

تلكَ الخيارات تنحصر في خيارين اثنين:

إمَّا الالتزام بالخيار الدِّيمقراطي (كما تدَّعِي واشنطن) وفي هذه الحالة فإنَّ القوى السِّياسيَّة المحتمَل سيطرتها على مقاليد الحكم في العِرَاق ستنحصر بين (الإسلام السِّياسي الشِّيعي)، أو (القوميين العرب البعثيين وحلفائهم من المسلمين السُّنَّة ومعهم التَّيَّارات القوميَّة الأخرى)، أو قد تولد التَّفاعُلات الرَّاهنة حالة ثالثة يجتمع في إطارها الإسلام السِّياسي (شيعي وسنِّي) ويسيطر على مقاليد الحكم (ديمقراطيًّا) من خلال تذكرة الانتخابات.

السُّؤال هنا: هل واشنطن بتوجُّهاتها السِّياسيَّة الحالية، على استعداد للقبول بأيٍّ من نتائج هذه الخيارات، طالما جاء الخيار تعبيرًا عن إرادة المواطن العِرَاقي (الذي يدَّعِي الرَّئيس بوش أنَّه خَاضَ الحربَ من أجله ومن أجل حريَّته)؟

الخيار الثَّاني أمام واشنطن يتمثَّل في استمرار الاحتلال العسكري، ومواصلة الحرب ضدّ المقاوَمة العراقيَّة، والاستعداد لتحمُّل الخسائر البشريَّة والماليَّة إلى مدى غير معلوم، خاصَّة في ظلِّاحتمال تسرُّب قوى عديدة إقليميَّة ودوليَّة لتصفية حساباتها مع واشنطن على أرض العِرَاق، وهذا هو المجهول بعينه.

لقد وضعتْ إدارة الرَّئيس بوش الثّور الأمريكي الهائج في مواجهة الرَّايات الحمر لتطارده من كلِّاتّجاه وليصاب الثّور بلوثة الجنون دون أن يدري ماذا يفعل وسط حلبة مجهولة التَّفاصيل إلَّا من (ميتادورات) مزروعون يلوّحون أمامه برایاتهم الدَّامية أينما اتَّجه.

فهل هذه هي النَّتائج العظيمة لما أطلقوا عليه (الحرب على الإرهاب)؟

وهل أيّ من هذه النَّتائج تُرْضِي أولئك الذين اختاروا إعلانَ تلك الحرب؟

أم أنَّ ما نراه في العِرَاق هو التَّجسيد الدَّامي لحرب الرَّأسماليَّة التي لن تتوقَّف حتَّى يأتي الإنسان بنظام اقتصاديٍّ أكثر إنسانيَّة، وأكثر عدلًا.

المقال الافتتاحي لجريدة العالم العربي
٢ – ١٢ –٢٠٠٣م.

هكذا... تحدَّثَ جورج

بالحكمة... والموعظة... ووعود الحريَّة... وشعارات الدِّيمقراطيَّة... ودعاوى التَّنمية والرَّخاء... تحدَّث الرَّئيس جورج دبليو بوش أمام عددٍ من المتخصِّصين والخبراء في معهد دعْم الدِّيمقراطيَّة في العاصمة واشنطن يوم الخميس الماضي.

كان الحديث مطوّلًا ومنمّقًا، وبِهِ العديد من العبارات القويَّة، والمعاني العميقة، وكانت جميعها هي ما حدا بي إلى اختيار هذا العنوان الذي صيغ على الطَّريقة نفسها التي صاغَ بها نيتشه ـ الفيلسوف الألماني ـ كتابه المعنون "هكذا تحدَّث زرادشت"، ولمن لا يعرف هذه القصَّة، نشير إلى أنَّ زرادشت هو أحد فلاسفة الصِّين القدامى، أمَّا نيتشه فهو أحد أعظم فلاسفة أوروبا في القرن الثَّامن عشر، وهذا الأخير حينَ أرَادَ أن يصيغَ مبادئ نظريَّته الفلسفيَّة، صاغها في صورة حديث جرى على لسان فيلسوف الصِّين زرادشت، وكان عنوان الكتاب... "هكذا تحدَّثَ زرادشت".

وجه الشَّبَه هنا بين حديث زرادشت وحديث بوش، هو البلاغة والحكمة، وسعة الأفق وعمق الإدراك، وذلك البعد الإنسانيّ الخيّر والهادِف إلى جعل حياة البَشَـر على ظهر الكوكب رحلة من المتعة تحت ظلال الدِّيمقراطيَّة والحريَّة والنَّعيم المقيم. فما الجديد الذي جَاءَ في حديث الرَّئيس والذي جعلَ العديد من المعلّقين والمحلِّلين في الكثير من بقاع العالم يهتمُّون به ويفردون له مساحات كبيرة سواء على موجات الأثير أو على صفحات الصُّحُف؟

الجديد أنَّ الرَّئيس بوش بدا في حديثه هذا (أو خطابه) وكأنَّه قد نجحَ في استئجار (كاتب) جديد لديه دراية بالعديد من المصطلحات والمفاهيم المفترَض تناولها، واستخدام مفرداتها في أحاديث القادَة والزُّعماء. هذا الكاتب ـ نقصد كاتب خُطب الرَّئيس بوش ـ الجديد جعله يبدو وهو يستخدِم تعبيرات مثل **Global Democratic Revolution** أو تعبير **Modernizing not Westernizing** وغيرها من التَّعبيرات الضَّخمة وذات الدّلالة، وكأنَّه رئيس آخر يختلِف عن (فتى تكساس) الذي عرفناه رئيسًا للولايات المتَّحِدَة على مدى الأعوام الثَّلاثة الأخيرة. الرَّئيس بوش في حديثه تحدَّثَ عن حاجة الشَّرق الأوسط إلى الدِّيمقراطيَّة والحريَّة، واعترفَ في هذا السِّياق بمسئوليَّة الولايات المتَّحِدَة عن مساندة نظم الحكم الفاسدة وغير الدِّيمقراطيَّة من أجل المصالح الوطنيَّة الأمريكيَّة المرتبطة بالنّفط والاحتياج له.

أيضًا تحدَّثَ عن ستِّين عامًا من الانتهازيَّة (الأمريكيَّة والغربيَّة) في التَّعامُل مع الدّول العربيَّة والإسلاميَّة في الشَّرق الأوسط. وحين أرادَ الرَّئيس أن يعطي مثالًا حيًّا على الدِّيمقراطيَّة التي ينوي تصديرها إلى الشَّرق الأوسط كان أمامه الدَّليل والمثال متمثِّلان في تجربَة (دمقرطة) العِرَاق الذي "يرفل أهله في أثواب الرَّخاء والحريَّة والأمن والأمان على أيدي حماة الدِّيمقراطيَّة من العسكريين الأمريكيين ومعاونيهم العِرَاقيين".

وفي هذا الإطار ـ إطار الدِّيمقراطيَّة والحريَّة الأمريكيَّتين ـ أشَارَ الرَّئيس بوش إلى ضرورة خوض الحرب في العِرَاق إلى النِّهاية، ومن أهمِّ ما قاله في هذا السِّياق: "... **Freedom is worth fighting for, dying for and standing for and the advance of freedom leads to peace**...". وحينَ أرادَ الرَّئيس بوش أن يستحثَّ همَمَ حلفائه

الأوروبيين الذين تركوه وحيدًا (مع حفنة من المرتزقة) في (العراء) (والوحل) على أرض العراق، استعاد أحداثًا تاريخيَّة لا علاقةَ لها من قريبٍ أو من بعيدٍ بالعراق والوضع في العراق. تلك الأحداث ارتبطت بالحرب الأهليَّة في اليونان عام ١٩٤٧م، وعمليَّات برلين عام ١٩٤٨م، وهي الظّروف والأحداث المرتبطة بنهايات الحرب العالميَّة الثَّانية ونتائجها، ولكنَّ الرَّئيس ـ أو كاتب خطبه بالمعنى الصَّحيح ـ قال مكملًا ـ وهنا ننقل عن الخطاب بالحرف الواحد: **" The strength and will of free peoples are now being tested before a watching world and we will meet this test"** إلى هذا الحدِّ يحاول الرَّئيس تحريض أوروبا (الحقيقيَّة) ضدّ المقاومة العِرَاقيَّة لكي تخف إلى نجدة قوَّاته الغارقة في المستنقع مدَّعيًا أنَّ الحربَ في العِرَاق هي حرب من أجل (الحريَّة والدِّيمقراطيَّة) (وليست حرب مصالح أشعلت جحيمها مجموعة من الاحتكارات الماليَّة والنّفطيَّة التي يعشِّش أربابها في أركان إدارته من البيت الأبيض إلى البنتاجون إلى الخارجيَّة). هذه الحقيقة التي يعلمها القاصي والدَّاني، يحاول (كاتب) خطب الرَّئيس بوش أن يطمسَها حتَّى لا يراها الأوروبيُّون الرَّافضون للحرب الدَّائرة على أرض العراق، وبالتَّالي تستثيرهم الادِّعاءات بأنَّ الحربَ على العِرَاق هي حرب ضدّ الإرهاب، ومن أجل حماية قيم الحريَّة والدِّيمقراطيَّة، وبالتَّالي يرسلون قوَّاتهم للقتال إلى جانب الجيش الأمريكي وجماعات المرتزقة التي تساعده بهدف إخماد المقاومة العِرَاقيَّة والقضاء عليها.

إنَّانتقادنا لخطاب الرَّئيس بوش يجب ألَّا يتجاوز عددًا من النِّقاط الإيجابيَّة التي تعرَّض لها عند حديثه عن الماضي والحاضر والمستقبل في منطقة الشَّرق الأوسط، وخاصَّة الأقطار العربيَّة. فعلى سبيل المثال، حين تحدَّث عن نظام

الحكم القومي في كلٍّ من سوريا والعراق (وهو يقصد بالتّأكيد حزب البعث العربي الاشتراكي)، ذَكَرَ أنَّ الحكّام وعدوا بإعادة المجد والشّـرف القومي إلى شعوبهم، ولكن بدلًا من ذلك جلبوا للشّعوب المهانة والدِّكتاتوريَّة والبؤس...

هذه حقيقة، ولا تنطبق فقط على العِرَاق وسوريا، وإنَّما هو حال كافّة الأقطار العربيَّة التي يعيش مواطنوها ضحايا لوعود لا تتحقَّق رغم مرور السِّنين.

بصورة إجماليَّة، يمكن القول بأنَّ الرَّئيس بوش وضع يَدَه على موقع الجرح والآلام في مواضع كثيرة من خطابه، خاصَّة حين تعلَّق الأمر بالشّعوب العربيَّة وحقوقها السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة لدى الحكّام وحين أشَارَ إلى التَّعايُش والانسجام بين قيم الدِّيمقراطيَّة وبين الدِّين الإسلاميّ مؤكِّدًا أنَّه لا تعارض بين الإسلام والدِّيمقراطيَّة.

ولكن تبقى الكثير من علامات الاستفهام التي يطرحها هذا الخطاب للرَّئيس بوش. أولى تلك العلامات تتعلَّق بما إذا كان الرَّئيس نفسه يعني المعاني (العميقة) التي تضمّنها خطابه؟

وإذا كان الأمر كذلك فإنَّنا نَرَى أنَّ خطابًا كهذا ليس كافيًا، وإنَّما يجب أن يكون بداية لاستراتيجيَّة جديدة قائمة على التَّفهُّم الموضوعي والدَّقيق لحقائق قضايا ومشكلات الشَّـرق الأوسط، وهذا يفرض على الرَّئيس أن يقومَ بتشكيل فريق عمل أو ما يُسَمَّى **Task Force**، بعيدًا عن القوى اليمينيَّة المحيطة به من كلِّ اتّجاه، هذا الفريق يتولَّى دراسة ما ورد في خطاب الرَّئيس وتحويله إلى استراتيجيَّة عمل سياسي وثقافي وإعلامي تتمكَّن من خلالها واشنطن من أن تستعيد وجهها المشـرق كقوَّة خير وسلام وديمقراطيَّة

حقيقيَّة. المعضلة التي تواجه الرَّئيس بوش هنا هي (أزمة الثِّقَة) القائمة الآن بين أمريكا من جانب والعالم من جانب آخر. فلن يصدق أحد هذه النَّوايا النَّبيلة والوعود الخيّرة من قيادة أصرّت على أن تتحدَّى العالم بأسره، وأعلنت الحرب على دولة صغيرة ضعيفة بعد أن حاصرتها وأنهكتها على مدى أكثر من عشر سنوات. ثمَّ وأيًّا كان نبل الأهداف وراء خوض الحرب في العِرَاق والإصرار على مواصلتها، فإنَّها أبدًا لا تبرِّر المهانة والإذلال الذي يتعرَّض له الشَّعب العِرَاقي صباحًا مساءً على أيدي القوَّات الأمريكيَّة. فأيَّة ديمقراطيَّة تلك تستحق لكي تتحقَّق أن يعاني في سبيلها شعب مثلما يعانيه شعب العِرَاق على أيدي القوَّات الأمريكيَّة؟

إنَّ ما حَدَثَ ويحدث في العِرَاق جعل شعوب العالم ـ وليس فقط الشُّعوب العربيَّة ـ غير راغبة من قريب أو بعيد في ديمقراطيَّة يجلبها الأمريكيُّون حتَّى ولو جاءت معها بالمنِّ والسَّلوى. هذا الواقع يجعل من المنطقي في إطار التَّحليل (الواعي) الذي قدَّمه الرَّئيس بوش في خطابه، أن تكونَ الخطوة التَّالية هي الاعتراف بخطأ الحرب على العِرَاق، وإعلان موعد لسحب القوَّات الأمريكيَّة منه في إطار تفاهم مع القوى الوطنيَّة الفاعلة على السَّاحة العِرَاقيَّة وليس فقط مجموعة العملاء والمتعاونين مع القوَّات الغازية. وفي هذه الحالة، ورغم استحالة حدوثها على الأقلّ في هذه المرحلة، تواجه الرَّئيس بوش معضلة أخرى تتمثَّل في مدى قبول السِّياسة الأمريكيَّة بالخيارات الدِّيمقراطيَّة للشّعوب حتَّى ولو أتت تلك الخيارات بقوى سياسيَّة لا ترضى عنها واشنطن (الحاليَّة) تحت إدارة مجموعة المحافظين الجدد وأيديولوجيّتهم المغرقة في الشّوفينيَّة والتَّعصُّب؟

ثمَّ ماذا عن فلسطين ولماذا لم يشر الرَّئيس إلى الحقوق الفلسطينيَّة، ويدين ممارسات القمْع والاحتلال الإسرائيليين بحقِّ شعب يطالب بحريَّته؟

في النِّهاية، يمكن القول بأنَّ خطاب الرَّئيس بوش يوم الخميس الماضي قد أثارَ من التَّساؤلات وعلامات الاستفهام ما تتضاءَل أمامه أيَّة محاولات لتجميل (الوجه القبيح) لسياسة غير ناضجة.

المقال الافتتاحي لجريدة العالم العربي
١١ – ١١ – ٢٠٠٣م.

obeikandl.com

اللصوص والأقنعة

العصر الأمريكي الذي فرضته إدارة الرَّئيس جورج بوش على العالم هو عصر الفهلوة حين يستدعي الأمر ألاعيب الحواة، وهو عصر البلطجة حين يستدعي الأمر استخدام القوَّة المطلقة التي يتمتَّع بها (الشَّجيع) الأمريكي ويتفوَّق على كافَّة صبية وغلمان (الحارة)، وهو عصر الدِّيمقراطيَّة الأمريكيَّة حين تكون التَّرجمة الحرفيَّة لتلك الدِّيمقراطيَّة هي هيمنة القطب الواحد والفكر الواحد والرَّأي الواحد، الذي هو كلّه يجب أن يكون (أمريكيًّا) ومَن عارضَ أو اختلف معه فهو (مارق) وعضو في نادي الأشرار الذين تذهب إليهم الدِّيمقراطيَّة الأمريكيَّة في عقر دارهم على أبراج الدَّبابات لتزيحهم من حيث هم، وتدمِّر بلادهم، وتحتلّها، وتقيم في ربوعها النِّظام (الدِّيمقراطي) الذي يرضى عنه دهاقنة واشنطن.

العصر الأمريكيّ الذي بشَّـر به أقطاب اليمين من المحافظين الجدُد وأعضاء الحزب الجمهوري، هو عصر له سماته ومميّزاته التي لم يعرفها العالم من قبل ولن يعرفها عالم المستقبل، أي عالم ما بعد العصـر الأمريكي. ولأن العالم يعيش العصر الأمريكي بعجائبه؛ لذا فلم يكن مدهشًا أن تدعو الإدارة الأمريكيَّة إلى مؤتمر (مدريد) لما سُمِّي (إعادة إعمار العِرَاق) ذلك المؤتمر الذي (فرضت) واشنطنحتميَّة المشاركة فيه على أكثر من خمسين دولة (لم تملك جميعها سوى أن تستجيبَ وترسل وفودها إلى العاصمة الأسبانيَّة) بناء على الطَّلب الأمريكي، بالإضافة إلى العديد من المنظَّمات والمؤسَّسات العالميَّة والإقليميَّة والتي هي جميعها ـ وبدون استثناء ـ لا تملك بدورها سوى أن تدور في الفلك الأمريكي وبغضِّ النَّظر عن المسمَّيات أو المواقع الجغرافيَّة،

أليس العالم بأسْرِهِ يعيش العصرَ الأمريكيَّ؟ المهم أنَّ الهدف من عقد مؤتمر (المانحين) هذا كان يتمثَّل أساسًا في محاولة واشنطن جمع (تبرُّعات ومساعدات) مقدارها ست وخمسون مليار دولار، هي تكلفة (إعادة إعمار العِرَاق) وهو المصطلح الذي لا يُتَرْجَم إلَّا بمنعى واحد هو الدَّعم المالي والعسكري لعمليَّات الجيش الأمريكي، وتغطية لتكاليف تلك العمليَّات بعيدًا عن دعاوي الإعمار المستهلكة، كانت نتيجة المؤتمر مخيّبة لآمال الإدارة الأمريكيَّة. حيث لم يتقدَّم أحدٌ ليحملَ فاتورة الحساب بالصُّورة التي كان يتمنَّاها الرَّئيس بوش أو النَّائب شيني أو الوزير رامسفيلد. لم تسفر جلسات ذلك المؤتمر سوى عن (عشرين مليارًا) تعهَّدتْ بها واشنطن بالإضافة إلى ثمانية مليارات من دول الاتّحاد الأوروبي وخمسة مليارات من اليابان. أي أنَّ الحصيلة هي ثلاثة وثلاثين مليار دولار، منها خمسة مليارات فقط في صورة منح لأغراض مختلفة (معظمها خدمات فنيَّة واستشاريَّة تعود من خلالها أموال تلك المنح إلى مانحيها سواء كأفراد أو مؤسّسات أو شركات) والباقي عبارة عن قروض للعِرَاق، ستكون ديونًا على أجياله الحالية والمستقبليَّة. وبغضِّ النَّظَر عن قيمة المبالغ، أو مدى نجاح أو فشل المؤتمر وبغضِّ النَّظَر أيضًا عن موافقة الكونجرس على تعهُّد الرَّئيس بوش بمبلغ العشـرين مليار دولار، إلَّا أنَّ التَّساؤل الذي لم يجرؤ قائد أو زعيم أو مؤسَّسة أو دولة على طرحه هو ببساطة: لماذا تدعو واشنطن العالم، وتفرض على شعوبه وحكوماته إصلاح ما أفسدته هي ـ واشنطن ـ بقيادتها الرَّعناء، واتّخاذها لقرار الحرب على العِرَاق على الرغم من معارضة المجتمع الدّولي لتلك الحرب. ولماذا تلجأ واشنطن الآن لدول العالم بعد أن تجاهلت إرادات تلك الدّول كما عبَّرتْ عنها في هيئة الأمم المتَّحِدَة ومن خلال مجلس الأمن.

ثمَّ أليست القوَّات الأمريكيَّة هي التي دمَّرت العِرَاق؟... لماذا تطلب القيادة الأمريكيَّة من دول العالم أن تدفعَ ثمنَ جريمة ارتكبتها هي بقوَّاتها المسلَّحة حين منحت لنفسها الحقَّ في شنِّ الحربِ على ذلك البلد وتدميره كدولة وتدمير بنيته التَّحتيَّة ومؤسَّساته ومنشآته، ومن ثَمَّاحتلاله احتلالًا عسكريًّا مباشرًا؟

ورغم أن لا أحد تجرَّأ وَطَرَحَ أيًّا من تلك التَّساؤلات إلَّا أنَّ الإجابة التي تلقَّاها السّيّد كولن باول، الذي ترأَّس وفدَ بلاده في ذلك المؤتمر، والمتمثِّلة في صمت الدّول وتحفّظها تجاه المشاركة السَّخيَّة في إعادة الإعمار، كما كانت تحلم بها الإدارة الجمهوريَّة في واشنطن، كانت هي الرَّد المنطقي والمعبّر عن شكوك العالم بأسره في نوايا وأهداف السِّياسة الأمريكيَّة. فما لا يريد أن يفهمه مسئولو الإدارة الحالية، أو ربَّما يفهمونه ولكنَّهم يستمرئون ادّعاء الغباء، هو أنَّ العالم كلّه فَقَدَ الثِّقَة في السِّياسة الأمريكيَّة، وأنَّ الولايات المتَّحِدَة لم تعد في نَظَرِ الشّعوب الأخرى هي تلك الدِّيمقراطيَّة الفتيَّة المؤمنة بالحريَّة وحقوق الإنسان، بل إنَّ المواطن الأمريكيَّ ذاته صارَ يتشكَّك في الكثير من الشّعارات والمبادئ التي يرفع ألويتها السِّياسيُّون أصحاب الأيديولوجيَّات والمصالح. من هنا، وفي ضوء الغيوم الكثيفة التي تحيط بمصداقيَّة السِّياسة الأمريكيَّة وشفافية تعاملاتها، كان إحجام العالم عن مدِّ يد العون لإدارة الرَّئيس جورج بوش في مؤتمر المانحين في مدريد. وكان أيضًا خروج إحدى المنظّمات الكنسيَّة الإنجيليَّة بتقريرها المثير عن مبلغ الخمسة ونصف مليار دولار التي استولت عليها الإدارة الأمريكيَّة البريطانيَّة في العِرَاق، وهو المبلغ الذي اختفى منه أربعة مليارات دولار دون أن يدري أحدٌ أين ذهبت أو كيف

تمَّإنفاقها في حين توثّق المستندات لمبلغ واحد ونصف مليار دولار فقط تمَّ إنفاقها وفق الأسس المحاسبيَّة وتمَّ تسجيلها دفتريًّا.

ثمَّ كيفَ يثق العالم في إدارة الرَّئيس بوش في الوقت الذي يعلم فيه الجميع أنَّ عقودًا بقيمة ٨ بليون دولار في العِرَاق تمَّ منحها للشّركات المتبرِّعة للحملة الانتخابيَّة للرَّئيس بوش، وأنَّ أكبر عشرة عقود تمَّ منحها لشركات تقوم بتوظيف مسئولين سياسيين كبار في مواقع القيادة بها. كما أنَّ عقودَ العمل والإنشاء في العِرَاق وأفغانستان تمَّ منحها بواسطة إدارة الرَّئيس بوش لشركات معيَّنة بدون مناقصات تنافسيَّة، وأنَّ شركة **Halliburton** التي كان يرأسها ديك تشيني، ومازال له نفوذ قوي فيها حصلت على عقود بقيمة ٢٣بليون دولار بدون مناقصات أو منافسات، وكذلك الحال مع شركة بكتيل **Bechtel** التي حصلت على أكثر من مليار دولار (جريدة **Los Angeles Times** نشرت تقريرًا بهذا الشَّأن في عددها الصَّادر يوم الجمعة الماضي على الصَّفحة الثَّامنة). وإذا ما تتبَّع باحث محايد المصادرالتَّمويليَّة لحملة الرَّئيس بوش للانتخابات القادِمة، وهي الحملة التي بلغت حصيلتها حتَّى اليوم أكثر من خمسة وتسعين مليون دولار، لاكتشف ذلك الباحث أنَّ مموِّلي حملة إعادة انتخاب الرَّئيس هم جميعًا ضمن صقور الشر الذين دفعوا بالجيش الأمريكيّ إلى أتون حرب بلا قضيَّة على أرض العِرَاق، باستثناء قضيَّة الجشع الرَّأسمالي الذي لا تحدّه حدود، والتَّخطيط الصّهيوني الهادف إلى تدمير كافّة الدّول والشّعوب العربيَّة القريبة من إسرائيل أو التي ترى فيها إسرائيل عدوًّا آنيًّا أو مستقبليًّا.

إنَّ قضيَّة واشنطن في العِرَاق (ليست إعادة الإعمار) فهذه قضيَّة معقَّدة ومتعدِّدة الأبعاد، حيث الإدارة الأمريكيَّة هي المسئولة ماليًّا وقانونيًّا وأخلاقيًّا

عن إعادة بناء كلِّ ما دمَّرته بعدوانها على العِرَاق أرضًا وحضارة وتاريخًا وشعبًا ومؤسَّسات وبنية تحتيَّة، بل إنَّه من حقِّ الشَّعْب العِرَاقي أن يقاضي الولايات المتَّحِدَة أمام كافّة أنواع المحاكم ودرجاتها، وعلى امتداد العالم لتحميلها ثَمَن الجريمة التَّاريخيَّة التي ارتكبتها. وإذا كان هذا كلّه ليس هو القضيَّة الآن، فإنَّ القضيَّة المركزيَّة هي (الورطة) ذاتها التي في إطارها تخوض إقدام الولايات المتَّحِدَة في (مستنقع) لا قرَارَ له، ولا نهاية قريبة للظّلمات المحيطة به من كلِّ اتّجاه، ونقصد به مستنقع الحرب التي تتصاعد خسائر الجيش الأمريكي فيها يومًا بعد يوم.

فهل من مخرج؟؟؟

وهل من محاولة جادَّة يعتَرِف ضمنها عرَّابو الحرب ومنظِّروها بفشلهم، وبالتَّالي يحاولون البحث عن حلٍّ يخرجهم من العِرَاق بطريقة تحفظ أقلّ القليل من ماء الوجه؟...

هذا هو السُّؤال...

المقال الافتتاحي لجريدة العالم العربي ١٨ – ١١ – ٢٠٠٣م.

عن العِرَاق والمقاومة... تساؤلات مشروعة

حفلت تطوّرات الأحداث على السَّاحة العِرَاقيَّة بالعديد من التَّطوّرات وعمليَّات الانتقام والانتقام المضاد فيما بين قوَّات المقاومة الوطنيَّة وقوَّات الاحتلال العسكري الأمريكي.

من بين ما أثار انتباهنا في خضمِّ تلك الأحداث وتطوّراتها حدثان مهمَّان، ربَّما لم يسترعيا اهتمامَ الكثيرين ممَّن يتابعون الصِّراع على ضفاف الرَّافدين.

الحدث الأوَّل: هو قيام ما يُسَمَّى (بمجلس الحكم الانتقالي) بإغلاق مكاتب قناة (العربيَّة) الفضائيَّة احتجاجًا على ما ادَّعت أنَّه دعاية تقدِّمها القناة للمقاومة العِرَاقيَّة، خاصَّة بعد إذاعتها تسجيلًا صوتيًّا للرَّئيس العِرَاقي السَّابق "صدَّام حسين".

يتوافَق قرار (مجلس الحكم) هذا ويترجم تمامًا ما قاله دونالد رامسفيلد عن القنوات الفضائيَّة (العربيَّة)، وهو ما يمكن أن يفهم منه أنَّ الإدارة الأمريكيَّة في طريقها إلى إسكات أصوات تلك القنوات، إلَّا إذا التزمت باتِّباع ما تريد واشنطن بثّه للعالم فيما يتعلَّق بمجريات الأحداث يومًا بيوم في العِرَاق، أيضًا يصبّ قرار (مجلس الحكم) تجاه قناة (العربيَّة) في هذا الاتِّجاه الممهّد لإخراج حتَّى (محطَّات التَّلفزَة العربيَّة) من العِرَاق.

الحدَث الثَّاني: وهو ذلك الخبر الذي بثَّته القيادة العسكريَّة لقوَّات الاحتلال عن اعتقال زوجة عزَّة الدّوري، وكذلك اعتقال ابنته، وذلك في مدينة سامراء بالقرب من بغداد.

هذا السّلوك من جانب قوَّات الاحتلال، هو بالضَّبط ما كان نظام "صدَّام حسين" يُتَّهم بارتكابه، وهو أيضًا ما كان أحد الشِّعارات الضَّخْمَة

التي تحت مفرداتها منحت الإدارة الأمريكيَّة نفسها حقّ شنّ الحرب على العِرَاق وإزاحة نظام الحكم القائم فيه. وذلك باستخدام القوَّة العسكريَّة الغاشمة وحدها دون سواها.

هذان الحدثان يمثِّلان دليلًا جديدًا على كذب الادِّعاءات التي ساقتها واشنطن لِتُبَرِّرَ حربهَا على العِرَاق واحتلالها لأرضه. فالإعلام من العِرَاق صار إعلامًا (موجَّهًا) تمامًا كما كان إعلام حزب البعث. والاعتقالات التي تتمّ لا تطال فقط (المطلوبين) من جانب قوَّات الاحتلال، وإنَّما تمتدّ لتشمل عائلاتهم، خاصَّة النِّساء والبنات (كوسيلة للضَّغط على هؤلاء المطلوبين سواء كانوا بدرجة عزّة الدّوري أو غيره من البعثيين، كبارًا أو صغارًا أو سواهم من أفراد المقاومة).

تأتي تلك الأحداث بينما تحاول إدارة الرَّئيس بوش البحث لها عن مخرج من الورطة التي وجدتْ قوَّاتها فيها بعد اتّساع عمليَّات المقاومة وتنوّعها وبلوغها درجة متقدِّمة من التَّنظيم والفاعليَّة. كما أتت في أعقاب القرارات الأخيرة والمتمثِّلة في نقل السُّلْطَة (المدنيَّة) إلى العراقيين بحلول شهر يونيو (حزيران) القادم، وكأنَّه محاولة للهروب إلى الأمام بنقل الصِّـرَاع على أرض العِرَاق إلى مستوى جديد هو ما نطلق عليه هنا (عرقنة) ذلك الصِّراع.

ونقصد "بالعرقنة" تلك الخطَّة الجديدة التي اتَّفَقَتْ بشأنها إدارة الرَّئيس جورج بوش مع الحاكم المعيّن من قبلها للعِرَاق بول بريمر، حين تمَّ استدعاؤه عَلَى عَجَل إلى واشنطن لتبليغه بالتَّفاصيل المقتَرَحَة؛ لكي ينقلها بدوره إلى موظَّفيه فيما يُسَمَّى (مجلِس الحكم الانتقالي العِرَاقي) عند عودته إلى بغداد. تهدف الخطَّة الجديدة الخاصَّة بالعِرَاق إلى تحويل الصِّـراع من مقاومة وطنيَّة ضدّ قوَّات الاحتلال الأمريكي والمرتزقة العاملين معه وتحت قيادته،

إلى صراع بين العراقيين أنفسهم، أي جعل الصِّراع عراقيًّا عراقيًّا، وهذا ما نقصده بكلمة "العرقنة"، بحيث يتولَّى العراقيُّون محاربة العِرَاقيين. ممَّا يرفع العبءَ تمامًا عن كاهِل قوَّات الاحتلال، التي ستعود إلى ثكناتها المحصَّنة تاركة قوَّات الشُّـرطة والجيش والحكومة المؤقَّتة (أو الدَّائمة) التي سيتمّ تشكيلها ليقوموا معًا بالرَّدِّ على هَجَمات المقاومة والتَّعامُل معها. وفي هذه الحالة يصير الصِّراع على أرض العِرَاق محلّيًّا فيما بين أبناء البلد، وتستريح وحدات الجيش الأمريكي من عناء الاحتكاك اليومي المباشر مع أفراد الشَّعْب العِرَاقي في الشَّوارع والأزقَّة، وهو الأمر الذي يضاعِف من حجم كراهية العراقيين للوجود الأمريكي يومًا بعد يوم.

تفتَّقت عبقريَّة مستشاري الرَّئيس بوش عن هذه الخطَّة (خطَّة عرقنة الصِّراع) كنتيجة مباشرة للصَّدمات المتتالية التي أصابتهم بها فعاليَّة عمليَّات المقاومة العِرَاقيَّة خلال الأسابيع الأخيرة، والخسائر الضَّخْمَة في الأفراد والمعدَّات التي تكبَّدَتها القوَّات الأمريكيَّة والقوَّات الأجنبيَّة المتحالِفَة معها في مختلف أنحاء العِرَاق والتي بلغ إجماليها خلال الأسبوعين الماضيين أكثر من مائة قتيل وعشـرات الجرحى والمصابين والمفقودين، بالإضافة إلى خمس طائرات هليكوبتر وعشرات المركبات والآليَّات العسكريَّة. أيضًا جاءت تلك الخطَّة كنتيجة مباشرة لتقارير المخابرات المركزيَّة الـ **CIA** والتي نشـرت بعضًا منها صحافة واشنطن وصحافة العالم، والتي أفادت بأنَّ المقاومة في العِرَاق هي خطَّة استراتيجيَّة منظّمة، قام بإعداد تفاصيلها نظام حكم الرَّئيس العراقي السَّابق "صدَّام حسين"، وبالتَّالي فإنَّ التَّعامُل معها بعقليَّة الاحتلال وأدواته سوف يضاعِف من الخسائر البشريَّة والماديَّة الأمريكيَّة، ويزيد أقدام السِّياسة الأمريكيَّة غوصًا في أوحال المستَنقَع العِرَاقي للدَّرجة التي لن تجد

تلك السِّياسة أمامها من بديل سوى انسحاب مخزٍ، ربَّما لا تريد الإدارة الحالية تحت ضغط الظّروف الدّوليَّة والدَّاخليَّة القائمة. من هنا وفي ضوء هذه التَّطوُّرات، وكنتيجة لتقارير المخابرات السَّابق الإشارة إليها، وغيرها تقارير أخرى تشير إلى أنَّه حتَّى سقوط بغداد ذاته بالطَّريقة (التي تصوّرنا جميعًا أنَّها سقطت بها)، واختفاء الدَّولة العِرَاقيَّة بين يوم وليلة، أنَّ هذا كلّه كان خطَّة مدبَّرة من جانب القيادة العِرَاقيَّة التي كانت تعلم مقدَّمًا أنَّه لا فرصةَ لها في الوقوف في وجه هجوم عسكريٍّ أمريكيٍّ شامل، وبالتَّالي كانت خطّتها تتمثَّل في جعل الأحداث تسير بالطَّريقة التي سارت بها حتَّى يتمّ استدراج الأمريكيين إلى حرب عصابات تستنزف قواهم ولا يستطيعون الصّمود الطَّويل فيها.

أيًّا كانت درجة المصداقيَّة، أو الصَّواب والخطأ في هذه التَّقارير، إلَّا أنَّ خطّة الإدارة الأمريكيَّة المفاجئة لنقل السُّلطة إلى حكومة عراقيَّة مؤقَّتة مع حلول شهر يونيو (حزيران) القادِم لن تحقِّقَ أيَّ تقدُّم فيما يتعلَّق باستعادة قَدْرٍ من الأمن في العِرَاق أو فيما يتعلَّق (بعرقنة) الصِّـراع وتحويله إلى تصارع واقتتال داخلي بين العراقيين. أمَّا مرجع الفشل المتوقّع للخطَّة فهو يتمثَّل أساسًا في طبيعة العقليَّة التي تحكم في واشنطن، وفي كمّ التَّناقض الفكري بين رموزها، أو لنطلق عليه (سوء توزيع الأدوار)، ففي الوقت الذي تمَّ الإعلان فيه عن خطَّة (الإسراع) بنقل السُّلطة للعراقيين، جاء إعلان كلّ من الرَّئيس بوش ووزير دفاعه رامسفيلد عن حقيقة أنَّ نقل السُّلطة هذا لا يجب أن يتوقَّع معه أحد أيَّة نيَّة في جلاء قوَّات الاحتلال من العِرَاق. بل اتَّفق المسئولان الكبيران على أنَّ الخطَّة التي تمَّ إعلانها تتعلَّق فقط بالشِّقِّ (المدني) في مسئوليَّات الإدارة العِرَاقيَّة، أمَّا الشِّقّ الأمني والعسكري، فإنَّه من اختصاص

الولايات المتَّحِدَة التي ستظلّ قوَّاتها متواجِدَة في العِرَاق. بل أكثر من ذلك، أعلنَ أحد كبار المسئولين في واشنطن أنَّ الإدارةَ الأمريكيَّة ستحتفظ بحقِّ (الفيتو) على أيّ قرار يصدره الحاكم (العِرَاقي) للعراق، أو حكومته أو أيّ من مسئوليه الذين سيتمّ اختيارهم وفق خطَّة نقل السُّلطة المنوّه عنها هنا.

هذه الحقائق تجعل إمكانيَّة أيّ تحوُّل في واقع مجريات الأحداث على السَّاحة العراقيَّة كنتيجة لتنفيذ الخطَّة التي تمَّ الإعلان عنها في كلٍّ من واشنطن وبغداد، هي مجرَّد أمنيَّات لن تحقِّقَ الهدَفَ الذي من أجله تمَّت صياغة تلك الخطَّة. فالإدارة الجمهوريَّة الحالية لا يحكم تصرُّفاتها في العِرَاق في هذه المرحلة عدد القتلى من الشَّباب الأمريكيين الذين يقتلون كلَّ يوم أو يصابون بعاهات ستظلّ تلازمهم مدى الحياة، أو كم الخسائر الماديَّة المتمثّلة في المعدَّات والتَّجهيزات والآليَّات التي يتمّ تدميرها وحرقها على مدار السَّاعات الأربع والعشرين من كلّ يوم.

كلّ هذا ليس هو ما يشغل الإدارة الحالية في هذه المرحلة، ما يشغلها ويؤرّقها هو اقتراب موسم الانتخابات، وموقف النَّاخبين الأمريكيين من الرَّئيس الحالي وطاقم إدارته، ومدى نجاحه أو فشله في حربه التي أعلنها على (أشباح الإرهاب)، التي كان الشَّعْبَان العِرَاقيّ والأفغانيّ هما أوَّل ضحاياها.

إنَّ التَّصاعُد غير المتوقَّع في حجم الخسائر البشريَّة والماديَّة كان هو السَّبب الدَّافع إلى ضرورة البحث عن مخرج من خلال وسيلة تتمكَّن بها واشنطن من استثمار وجود (عدد لا بأس به) من العملاء العراقيين والمتعاونين، أصبحوا الآن موجودين في بغداد، ويمكن الاستفادة منهم بالطَّريقة التي تخدم استراتيجيَّة الحزب الجمهوري من حيث سعيه للاحتفاظ بالحكم لأربع سنوات أخرى قادمة. هذا الهدف استدعَى طرحَ صيغة جديدة للاحتلال

تنقل الصّراع على أرض الرَّافدين ليصيرَ عراقيًّا عراقيًّا، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية يوفّر فترة من الهدوء على جبهة القتال بالنِّسبة للجيش الأمريكي (حين يقبع) ولو مؤقّتًا داخل الثَّكنات المحصّنة، حتَّى يمكن شراء مساحة من الوقت يتمكَّن خلالها منظّمو حملة الرَّئيس الانتخابيَّة من تسويق حالة الهدوء (المؤقَّت) على الجبهة، وتوقف نعوش جثامين القتلى من الوصول إلى المطارات الأمريكيَّة، وتسويق تلك الحالة على أنَّها (نجاح) للحرب على الإرهاب، والانتصار على (الإرهابيين) العِرَاقيين وحلفائهم من إرهابيي (القاعدة). وهو الوضع الذي قد يساعد الرَّئيس بوش في حملته لإعادة انتخابه رئيسًا للمرَّة الثَّانية. السُّؤال الآن هو: هل ينجح الرَّئيس بوش وعملاء الإدارة الأمريكيَّة من العِرَاقيين في تنفيذ هذا المخطَّط؟

وما موقف القوى الوطنيَّة العِرَاقيَّة سواء تلك المنخرطة في عمليَّات مقاومة الاحتلال، أو تلك المتردّدة بناء على حسابات طائفيَّة أو عرقيَّة أو سياسيَّة خاصَّة بها. ثمَّ هل ينجح بريمر في جعل (الجيش العِرَاقي) الموالي للاحتلال الأمريكي يقاتل الجيش العِرَاقي المتمثِّل في عناصر المقاومة وخلاياها وقياداتها؟

ثمَّ أخيرًا هل تنجح خطّة (عرقنة) الصِّراع على ضفاف الرَّافدين؟ وهل تنقذ الرَّئيس بوش وإدارته التي تتآكل شعبيّتها يومًا بعد يوم مع اقتراب موعد الحملة الانتخابيَّة الجديدة؟

تساؤلات ستجيب عنها تطوّرات الأحداث خلال الأسابيع والشّهور القادمة.

المقال الافتتاحي لجريدة العالم العربي
١٢-١٢-٢٠٠٣م.